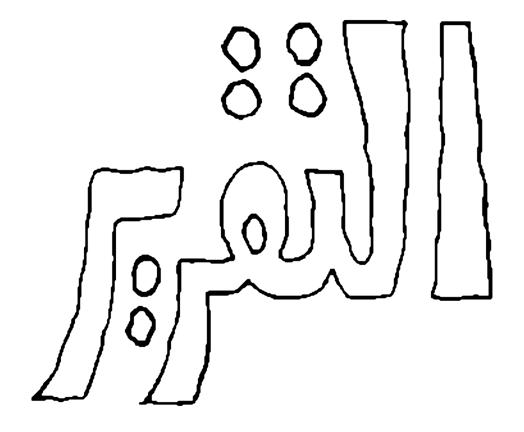
التقرير

وليد إخلاصي



وليد إخلاصي



منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق ـ ١٩٧٤

تصميم الغلاف : محمود السيد

قصص

أحلام المسيح

هي الأوساخ تنتشر في هذا المكان ، الغبار الذي غطى الجدران والآلات والأرض ، لم لا يزيله الرجل فيعيد المكان الى طبيعته • ألمح مكنسة طويلة الذراع تستند الى الجدار المتشقق الطلاء ، الا أنه بالرغم من النور الساقط على الرجل المنهمك برصف الحروف الرصاصية ، والموجه بصورة رئيسية الى المكنسة ، فأنا لم أر ظلا للرجل أو المكنسة • كانا متباعدين كعدوين • كانت النافذة موحية ومرسومة باتقان ،

والضجة تأتي عبر القضبان الحديدية متباطئة وكأنها لحن راقص تعزفه فرقة متعبة .

وفي لحظات ، سقطت حزمة من النور عبر لحن صوفي ، وكانت كلمات « الله أكبر » تتماوج مع النور واللحن • ابتسم الرجل الموجود في المكان وصاح بصوت أتاني من بعيد :

ـ أعتقد أنك ستعجب بالحروف يا سيدي •

فتأملت الورقة المستطيلة التي نشرها بين يديه بمحبة ، وفيما عيناه تلمعان من وراء البلورتين ، كنت أفكر بأشياء مختلطة ، بالمكنسة ذات الذراع والطريق المشجر الذي قادني الى هـذا المكان والذي تبينت أنه مطبعة في هذه اللحظة بالذات •

قلت للرجل :

ـ ألا تستخدم المكنسة عادة في تنظيف هذا المكان؟

وكان يقول :

ـ أعتقد أن الحرف ١٦ يبرز الموضوع بشكل أفضـل •

وقلت له وقد بدا أنه أقصر مني قامة بشكل ملحوظ :

ـ كأن المكنسة لم تستخدم من قبل على الاطلاق، فلم لا ...

وكان الرجل يقاطعني فيما يركز باصبعه ، التي بدت أنها مصابة بالاكزيما ، على السطر الرابع:

ـ انظر ، فلقد تعمدت أن يكون هذا السطر خلافاً للأسطر الأخرى ، أليس الاسم هو المهم يا سيدي .

توقفت خلال حديث الرجل الذي لم تثرني مقاطعته ، وعندما تابعت اتضح لي أن وجهه مألوف لدي بالرغم من أن بقعا شحمية كالتي تنتشر على الأرض والجدران كانت تطلي وجهه أيضاً ، قلت :

ـ لم لا ...

قال الرجل من جديد فيما يتمخط بورقة رقيقة سحبها من على طاولة حديدية :

ـ رغم الذي جاء في ورقة النعي هذه ، فان البروفة كما تراها يا سيدي بسيطة .

آنذاك تذكرت لم حضرت الى المطبعة ، فأخذت الورقة بين يدي وتفحصتها بامعان ، وقلت بشكل تقريري :

ـ ولكنني لا أريدها بسيطة بل شيئاً كالموت تماماً •

ـ الموت أمر بسيط يا سيدي •

وقهقه بصفاء حسدته عليه ، الا أنني ما لبثت أن توجهت اليه بالأمر قائلاً :

ـ أريدها غير عادية ، ورقة نعي غير عادية ، ألا ترى انها غير عادية •

فهز بكتفيه الدقيقتين وقال باستسلام :

ـ أنت صاحب الرأي ، ولكنني لا أرى موجباً للتعقيد •

تابعت أوامري اليه :

ـ أريد أن تغير الاطار هذا ، وأن تترك فراغاً مناسباً حول الاسم ، كما أنني أقترح أن تكون حروف اسم عائلة الفقيد ببنط أســود غامق ، ولا مانع عندي من اضافة جملة لتحتل صدر الصفحة ••

وبعد لحظات من التفكير السريع قلت متابعاً :

ـ ولا تحسبن الذين قتلوا ...

قاطعني رجل المطبعة ، الذي تحول فجأة الى عجوز أبيض الوجه ، بقوله :

ـ وهل استشهد صاحبك ؟ صاحب هذه الورقة هل استشهد .

ـ أعتقد أنه فعل

صاح الرجل بمودة :

ـ يبدو انه عزيز عليك

ـ دون شك .

ـ قريبك ؟

ـ تقريباً

ـ والدك ؟

ـ لا .

ـ أخوك ؟

ـ لا . لم تكثر من الأسئلة ؟

فسألني فيما انهمك من جديد في رصف الحروف:

ـ يبدو اهتمامك به زائداً • قتل في معركة أم أنها رصاصة طائشة ؟

ـ • • •

ـ لا بد أنك تحبه ، أقصد كنت تحبه • رحمه الله وأدخله فسيح جناته ، آمين •

تسللت الضجة ، التي انقطعت خلال الدقائق السابقة ، الى تجاويف وجهي • أحسست بتوسع في التجاويف ولكنني لم أتألم • وكان من الواضح أن الرجل لا يحرك شفتيه عبثاً ، الا أن كلماته لم تصل الي ، ولمحت في عينيه تساؤلات حول الشكل الذي آلت اليه ورقة النعي ، فأشرت اليه بالموافقة اذاك ابتسم خداه الضامران ودارت الآلة بشكل هادر •

باعجاب نظرت الى آلاف الأوراق التي حولتها اسطوانة المطبعة الى مناشير للموت ، وغمرت الرجل بنظرات امتنان وحب وانطلقت كالصاروخ البطيء الى الشارع •

كانت المدينة مربعة ومحاورها الأربعة متعرجة ورخوة ولكنها التقت في مركز المدينة الذي اتضح

لي أنه « الجامع الكبير » ومن خلفه « سوق المدينة » بدهاليزه المظلمة • على السطح الأملس لعمود أصفر كنت أتطلع الى ورقة النعي الملصقة بعناية • وتبدت لي ولأول مرة انعكاسات الشمس الصيفية على صحن الجامع النظيف والذي بدأ باللمعان فيما تحيط به الأعمدة الصفراء ويتكاثر الناس الحفاة داخله • وحين أدركت أني مازلت أقف في الجامع بحذائي سارعت الى خلعه واخفائه تحت ابطي •

كانت ورقـة النعي أنيقة ومتقنة ، مستطيلة ومتناسبة مـع العمود • بعد قليل كانت عشرات العيون تتطلع معي الى الورقة • وقد لمحت عن بعد رجلين يتناقشان فانهمكت باذني وعيني في متابعة الحوار المتكافىء الذي كان يقفز بينهما كطابة •

قال الأول : تدفع عشرة آلاف ، أمـا العشرة الأخرى فهي « المؤجل » •

قال الثاني : ولكنها سمراء يا حاج ، والأسعار ليست مناسبة •

قلت للاثنين : ليس لي الحق بالتدخل ، ولكن • • •

قال الأول : ولكنها صبية وفي الشــتاء القادم تبلغ الخامسة عشرة فقط •

قال الثاني : صبية ، وما الفرق ما دامت أنحف من عنزة •

قلت للاثنين : اذا سمحتما فلي رأي •••

صاح الثاني مشيراً الي باصبعه محدثاً الأول :

ـ أبعد هذا الرجل من هنا اذا شئت أن نتفق•

آنــذاك نظر الي الرجل حانقا وقــال كاظماً غيظه :

ـ وحق هذا المكان اتركنا بحالنا• اتركنا بحالنا اذا كنت تحب الرسول •

في تلك اللحظة حومت في سماء الجامــع طائرة سوداء تئز على مقربة من الصحن ، فسارعت أتابعها من كل جانب •

ـ سيقتله الفضول •

ولم ألق بالا للصيحات التي حامت حولي ، أما الآخرون فكانوا يحتمون بالأعمدة يراقبون الرذاذ

الذي جعل ينصب من الطائرة بغزارة يغمر المكان بقطع صغيرة قاسية ثقبت الأرض اللامعة فبدت بعد قليل كمنخل ، آنذاك تطايرت الابتهالات والأدعية من خلف الأعمدة وارتعش الناس وشاهدت البسمة تنعقد في سماء الأروقة كمصابيح الزيت ، ولكنني فكرت آنذاك بالعودة الى الرجلين المتحاورين فرأيي لم أعطه بعد ، وحين فعلت كانا يبتسمان وكأن كل شيء قد بت بأمره . وساد المكان سكون .

على عمود آخر كانت ورقة النعي اللزجة تجتذب عيون الناس ، فانخرطت في تيار اهتماماتهم اقرأ الورقة وكأنها شيء جديد . قال رجل ملفوف بشال فاخر :

ـ أنتم السابقون ونحن اللاحقون .

وعلق آخر :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

سألني شاب :

ـ هل هو شاب ؟

قلت له :

ـ نعم

قال رجل يسبّح :

ـ كل من عليها فان

قلت :

ـ يبدو ذلك

همس عجوز في اذن الشاب :

ـ ترك ثروة ·

قلت للعجوز :

ـ هل تعرفه ؟

قال بثقة :

ـ ولو ، ربيته على يدي هاتين

قال رجل بعين واحدة :

ـ مسكين قتلته الطائرة ·

وازداد اهتمامي بالورقة · شعرت بالرهبة حين شق الصفوف رجل بدا لي اني أعرفه من قبـل ، وصاح ببطء :

ـ ألم تذهب بعد ؟

همست بخوف :

ـ ليس بعد ٠

ـ وماذا تنتظر اذن ؟

ـ لا أنتظر شيئاً

ـ هل تعتقد أن تأجيل الأمور يفيدك ؟ ورقة النعي والصقت في كل مكان ! ماذا يقول الناس وأنت واقف هنا ونعيك في كل مكان ٠

فعلت همهمة خفيفة ظلت تشتد حتى باتت كالأمر الالهي ، فقلت صاغراً أخاطب جميع الناس المحتشدين حول العمود :

ـ حسن ٠٠ حسن ، سأذهب

أشار القادم آنذاك الى ركن بعيد وهادىء تظلله الرهبة ، فأمعنت النظر لأجد تابوتاً خشبياً قدرت أنه مصنوع من خشب الجوز الفاتح ، وكان التابوت يرتكز على « مغتسل » مرتفع القوائم ٠ وعندما اقتربت من التابوت لم أسمع كلمة وداع بل أحسست

باقدام الانصراف الرخوة تدب على البلاط الهندسي التكوين كايقاعات « السماح » ٠

على خشب الجوز كانت ثمة نقوش مختلطة : رسوم غائرة على الجانبين تمثل أفعى تداخلت بآيات قرآنية دقيقة الصنع ولكنها غير واضحة تماما للقراءة ٠ كان الغبار يملأ النقوش فحاولت أن أنفضه ولكن صوت الرجل جاءني من بعيد « لم المماطلة » فقلت لنفسي ، وقد شعرت باحساس ليس هو بالشجاعة ولا بالاستبسال ، شعور جديد لا يمكن تسميته ، « لم المماطلة » ٠ كشفت وجه التابوت بتأن وحرص ، ولكن صوت آهة خفيفة خرج من حنجرتي امتزج بصرير الوجه الخشبي ٠ كانت هناك في التابوت امرأة عارية تستلقي من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها ، وردية اللحم ، تسدّ زوايا المستطيل وعمقه بالرغبة المتأججة ٠ وبدت لي عيناها كزمردتين شفّافتين باردتين وساخنتين ولكنهما جامدتان تدوران في فلك ثابت ٠ دفعتني النظرات الآلية الى جولة كاملة التفاصيل عبر الجسد الطافح بالدعوة ٠ المرتفعات بلا ظل ، المنخفضات بلا ظل ٠

ـ لا بد انه الموت ٠

كان الناس من خلفي ينصرفون ٠ العينان في دوران لولبي كشوحة تحوم حول جثة ، كأنه استلاب ، سرقة متقنة ، تفريغ داخلي ٠

ـ لابد انه الموت ٠

تفريغ هادىء ومنظم ، كأن مضخة ساكنة الصوت كانت تفرغ داخلي وأنا لا أقاوم ٠ امتصاص عبر أنابيب غير مرئية اتصلت بين عيني المرأة وحلمتي ثدييها والبركة السوداء عند أسفل بطنها الهائلة الاتساع ٠ امتصاص تفريغ ٠ السرعة تتزايد ٠ كل أجزاء جسدها تتحرك كالموت بلا حركة تفرغني ٠

ـ لا بد أنه الموت ٠

كان كل شيء قد انتهى بالنسبة لي ، وبالنسبة للآخرين ، حين كنت قد أصبحت كليا داخل المرأة الحارة ـ الباردة ، فلم أعد أوجد في مكان ما ٠

كأن البركة ابتلعتني ٠ كنت أغوص في ماء ليس بماء ، فلا أغرق ٠ أهبط مستسلماً لتيارات من كل جهـة ولكنني أغوص بلا حركة ٠ وأصبح حوض

المرأة كالسقف • كان السقف كابوسا مفلطحا وكتيما ومشبعاً بالفراغ •

أخذت تنظر الي بعنان أم فقدت زوجها • فألفيت نفسي بين أحضانها أهتز كرأس شجرة عنيدة يقتلعها الأطفال • كانت تجرني من مسام جلدي المتورمة كالدمامل فانسحب كالغيمة • كانت تدخل أصابعها في جوفي وتخرجها مغمسة بالدم والصديد لتطلي بها جدران الغرفة التي لم أر لها سقفاً فتتجدد الجدران حتى لكأنها أصبحت تلمع • وأغمض ، آنذاك كان شيء كالتعب قد سقط من أعلى نقطة أمكن لي تصورها فاستقبلته بتحمل • تمددت كالضوء على سرتها ، كزنار احتميت بها • تطلعت في عيني برقة كدهشة الأطفال ، ومنحتني قدرة للنوم ، حدودها غيبوبة المتعة •

الفجر يختلط بالضوء والعتمة ، والليل بدا وكأنه يضاجع نور النهار ، وكان هناك صف من النساء اللواتي لا يستر عريهن سوى الفجر الذي اختلط بالليل والنهار المنهكين بعد متعة طويلة • تطلعت حوالي أبحث عن المرأة الساحرة فلم أجدها ، اقتنعت

بوجودي أمام زقاق سقف بمنحنيات متكررة • تذكرت بعد لحظات أن هذا المكان هو « سوق المدينة » نفسه • الدكاكين تعرض النساء بانتظام • كل دكان تقدم امرأة ، وكل امرأة تقف أمام دكان ولم يكن هناك من مشتر واحد • كلوحة جدارية هائلة الامتداد يسقط عليها ضوء صناعي ، كان صمت المنظر يتوزع أمام عيني ، الدكاكين والنساء • وجدتني بعد لحظات أهرع الى أكياس فارغة أرمي كل واحد منها على امرأة عارية ، ولكنني ما لبثت أن شاهدت الاكياس تسقط على الأرض من جديد ، وتعود النساء الى أوضاعهن ، وثمة نور يعطي ظلالا واضحة للمرتفعات والمنخفضات •

أحياء كانت النساء وحارات كالصيف ، ويجلسن في أوضاع اقتصادية • برز أصحاب الدكاكين فجأة من الداخل وراحوا يصيحون في وجهي بغضب وتهديد فلم أستسلم • رحت أغطي الأجساد ثانية بالأكياس ، وكانت تسقط • صاح بائع مشيراً الي :

ــ هوذا لص السوق •

هتف رجلان آخران :

ـ استدعوا السلطات ٠

وفيما كنت أفكر هادئاً بكل شيء يجري ، صرخ رجل كان قد قفز من خلف المصطبة التي تجلس عليها امرأة عارية :

ـ الأعور الدجال ٠

وسارع بالعودة الى مكانـه ، وتعالت الهمسات والهمهمات « الأعـور الدجال ٠٠ الدجال ٠٠ » وتطلعت في لوح زجاج كالمرآة فلم أجد أي أعور هناك٠

سألت الرجل ببراءة :

ـ ماذا تعني بقولك هذا ؟

فاختبأ وراء ورقة مالية كبيرة كجريدة ملونة ، ولم ينطق بكلمة ٠ الأعور الدجال بات موجوداً في المكان ، فاسمه يتردد كأغنية محرمة على كل شفة وكان الاسـم يتردد تتقاذفه الجدران ويختلط بالصيحات تستدعي السلطات ٠ لقد التبس الأمر علي فأنا لم أفعل سوى ٠٠ سوى ، ماذا يسمون تلك المحاولة عادة ؟

حضرت الضجة الهائلة مع نور الشمس الذي أتاح للرؤية كل فرصة ، صهيل الجياد كان قد تناهى الى سمعي بعيداً ولكنه أكيد · تطلعت في الاتجاهين فرأيت جنوداً غرباء يسدون منفذي السوق الطويلة ويسعون كالجراد باتجاهي · سكنت في مكاني أراقب الزحف البطيء ، وكان الجند يداعبون النساء بحرابهم فيما تتعالى صيحات أهل السوق واشاراتهم نحوي « الأعور الدجال ·· الأعور الدجال » ·

بدا لي المنظر بعد قليل وكأنه شيء مألوف · الجنود الغرباء يضاجعون النساء ويطيحون بكل شيء · صيحات الاستحسان تتعالى وتتعالى ، وأحجار من جدار السوق تتهاوى وتتهاوى ، الجرحى من أصحاب الدكاكين الذين سقطوا تحت السنابك ما زالوا يهللون ويكبرون « الأعور الدجال » · سمعت شيخاً يقول للجنود فيما يهمون علي يحيطون بي من الجهات الأربع :

ـ الحمد لله ، أنقذتمونا منه ·

وكنت أستسلم للغرباء والتعجب يلبسني كبدلة ضيقة · لم أستطع التساؤل فيما أعبر السوق وسط

ثلة منهم ، وكان السوق قد تهدم معظمه وشبت فيه حرائق صغيرة ومتناثرة · كانت عيون أهل السوق تطفح بالامتنان ·

ــ اقتلوه

ــ هو الذي هدم سوقنا

ــ الموت شنقاً للأعور الدجال

ــ الحرق للكفار

ــ اصلبوا عدو الشعب

رغم الآثار التي خلفتها القبضات الغليظة على ساعدي فلم أشعر بأي ألم · لم أحاول الهرب فقد فتنتني وجوه الناس تطل من كل مكان · توقف بي الجنود الغرباء عند ساحة هائلة الاتساع تحيط بها أعمدة صفراء ، وكانت آثار النعي السابقة مازالت في مزق الأوراق المتبقية · كنت الى ذلك الحين لا أنطق بكلمة ، فسألت جندياً التصق بي :

ــ من أين أنت أيها الجندي ؟

قال الجندي وكان شاباً :

ـ لست من هذه المدينة طبعا

وأردف جندي آخر بقوله :

ـ وما شأنك بذلك

راودتني نفسي في أن أقول شيئاً للناس المتجمعين بسرور واضح على الوجوه والأطراف والملابس ، ولكن شعوراً بالتمزق أحسست به فجأة ، وعلمت آنذاك أنني أتمدد على عمودين بحيث باتت ذراعاي متباعدتين كعدوتين • ولأول مرة أحسست بالدموع تتردد في الانسكاب من مقلتي • صيحات الناس كانت تثقب أذني •

ـ الصلب للمجرم

ـ الصلب للخائن

وآنذاك كان الجنديان الغريبان ينجزان العملية بمهارة فيما يتهامسان « انظر الى دموع التماسيح » • وتعالت صيحات التهليل من كل جانب تخرج من الحناجر والعيون الأرجل • وكنت أتابعها بدموع لم تعد تتردد في السقوط •

أريد أن أعرف الساعة ، شيئاً عن الوقت الذي أنا فيه ، « كم الساعة من فضلك » وحين تلبدت السماء بالغيوم واشتد قصف الرعد ، بات لدي شعور مؤكد بأن الدموع هي مصدر تلك الأمطار التي تحملها ريح رطبة كصفعة ذيل لحيوان يجري هائج ٠

الساحر

بدت لي عدسة المجهر قذرة ، ولكن الخطوط ومن ثم النقط الدقيقة جعلت تتشكل ببطء شديد على البلورة الرقيقة • أثار انتباهي الشكل الهلامي الذي ظهر فجأة على مساحة الرؤية فمسحت العدسة بمنديل ، الا أن عنايتي الفائقة بالنظافة لم تمنع الشك الذي بدأ ينمو بشكل شيطاني في داخل رأسي • كان الذي سيظهر لي تحت العدسة هو حتماً سلسلة من الميكروبات لا علاقة له بالشيء الذي بدأ يتكون

بشـكل تدريجي · ولكن فيما ألصق عيني بالمجهر من جديد ، بات أكيداً أن الخطوط والنقط قـد جعلت تتكامل لتعطي شكل رأس بشري ·

هل تعلمون ماذا حدث لي منذ أسبوع ، وعلى وجه الدقة في الأول من الشهر القمري الذي أصبح هلاله الآن أكثر وضوحاً من لحظة ولادته ؟

هل تعلمون ما الذي حدث ؟ لقد رأيتها مهشمة الرأس وكان الدم واضحاً على وجهها رغم بعد المسافة التي تفصلني عنها · كانت على الرصيف المقابل وكنت أنتظر الاشارة الخضراء ، وقفت هي متململة ، ثوبها كان بنفسجياً فاتحاً (واحد من الألوان الثلاثة التي أحبها : الأسود والأبيض والبنفسجي) ، نحيلة ولكن صدرها كان ممتلئا · هل تعلمون ماذا حدث تماما اذ ما زلت أذكر كل شيء : نظرت اليها وكانت تتطلع باستعلاء الى شارة المرور ، وانتصبت أمام عيني فجأة صورة لا تنسى : المرأة مهشمة الرأس والدم الأسود يغطي وجهها كأعشاب الملاعب المهملة · وعندما أصبح الممر سالكاً تمتمت في سري « الحمد لله » ومضيت في طريقي فيما هي اتجهت نحـوي

وعيناي تهللان بالفرح لخلاصها ، ولكن سيارة مسرعة مرقت كالشهقة التي خرجت من صدري وأنا أرى الى الفتاة التي كانت آمنة للحظات معدودة فاذ بها تقتطع من مكانها لتطير فتحط على الأرض كتلة متكومة • واختلط الموت بالضجة • وفيما تجمع المارة كالذرات الرطبة حول المصابة كنت أقف في مكاني كالمسمار • بعد لحظات تبين أن المرأة قد ماتت لتوها ، وتيقنت من ذلك عندما لمحت الدم يغطي هشيم الرأس فانسحبت مذعوراً بينما اجتذب الموت جميع المارة • ماذا فعلت ؟ أقسم أني لم أضمر لها حقداً • قرأت في وقائع اليوم التالي خبراً مفاده أن رجلا حقوداً على الجنس البشري قد صدم صبية بسيارته فقتلها على الفور •

اجتذبتني العدسة من جديد ، ولكني قاومت وقاومت حتى انتفخت عروق رقبتي ، فتركت مكاني الى النافذة حيث وقفت هناك أنفث الدخان من خلال القضبان الحديدية السوداء • تذكرته الآن بوضوح، تلك القضبان •• آه أيتها القضبان •

ماذا كان اسم الصبية ؟ لا لا أريد أن أعيد سيرتها

فهي شؤم • ماذا يضيرني في ذلك ، اسمها كان « آ • ب • ت » ، هذا ما عرفته بعد المقلب الذي وقعت فيه دونما توقع أو حتى استعداد مسبق • ساقتني قدماي نحو مركز الشرطة أتحرى عن واقعة الدهس التي أفرج عن مسببها بعد ذلك بكفالة مالية لأن أحداً من أهلها أو معارفها لم يظهر على ساحة التحقيق ، وبالرغم من أن اسمها كان واضحاً في بطاقة الهوية ، الا أن الاتصالات لم تسفر عن معرفة أحد من عائلة « آ • ب • ت » لذا عندما فاجأني الضابط بسؤاله :

ـ ما علاقتك بالقتيلة ؟

تلعثمت فلم أجب ، ونضح جبيني بالعرق البارد حين سأل عن هويتي فأخرجتها بهدوء لأقدمها له باضطراب فيما كان يتفحصني ليبدي دهشته بعد قليل لكوني لا أمت بصلة الى المرأة ، كنت أقول له :

ـ كنت ماراً في طريقي الى المختبر •

ولكن عينيه لم تتركا لي مجالا لوصف الحادثة ، قال بصوت مبتور :

ـ ما علاقتك بالقتيلة ؟

أصر الرجل على أن أوقف في سجنه الصغير ريثما يستكمل التحقيق ، ولكنني استجمعت شجاعتي وصحت :

ـ هذا خرق للقانون

فابتسم وجعلني أدخل الزنزانة صاغراً ، فوجدتني بين ثلاثة رجال جثموا هناك في الظلمة يدمدمون . حاولت أن أتكلم بصوت مسموع ، ولكن يدأ خشنة قبضت على ذراعي ، وهمست رائحة كريهة في أذني :

ـ لاتتكلم بصوت يسمعك فيه ضابطنا .

وتسللت الى أذني الثانية لهجة مخنثة :

ـ ضربني البارحة لأني ضحكت . هيء هيء . هيء .

بعد لحظات استقر الظلام في عيني فأبصرت المكان مشرباً بالخضرة الضاربة في كل مساحة ، والزوايا كانت لينة فأحسست الغثيان . قال الرجل الثالث بعد أن استدار الي وكان وجهه ملتصقاً بالحائط :

ـ ماذا سرقت ؟

ـ لم أسرق شيئاً

ـ أنت زان !

فلم أجب ، آنذاك تبخرت الضحكات المكتومة بما فيها المؤنثة لتحيطني بجو من السخرية لم أوجد به من قبل . رجل في الأربعين مثلي يحتجز في زنزانة قذرة ويكون مجالا لسخرية أوباش ثلاثة ! صحت منادياً على الضابط ولكنه أمعن في اهمالي فأوعز الى مساعد سمين حشر رأسه بين القضبان وقال كمدرب للحيوانات :

ـ هس .. هس .. هس .. هس لا تصرخ ، الرئيس يزعجه الصراخ .

لبثت صامتاً دقائق طويلة وممطوطة ، كنت أعد أنفاسي ، وكنت أستمع الى لهاث أحد الرجال يخرج من أنفه . كنا جميعاً صامتين ننظر الى القضبان .

بعد قليل همس الرجل الثالث وكان قد أخذ مكانه بقربي :

ـ لم يقل لنا الاستاذ ما هي تهمته ؟

ـ سوء تفاهم ٠

فاختنقت ضحكة أفلتت من فم المخنث لجمها الخوف من الضابط وتابع الثالث استجوابه :

ـ أنت تتقن الاجابة ، ولا يبدو عليك أنك محام ٠

ـ ومن قال لك !

ـ وماذا يعمل الأستاذ ؟

وجاء صوت المساعد كالمفرقعة ينهانا عن الكلام فسكتنا ٠

عضضت على شفتي والغيظ قد انتشر في أرجائي المتداعية ، كان التعب قد استبد بي حتى كرهت تلك المرأة ذات الثوب البنفسجي ٠ جعلت أفكر بها من جديد ٠ كانت ساقاها نحيلتين وأنا أحب السيقان النحيلة ، انها أشبه بالأعمدة الدقيقة الصنع في معبد جليل التكوين ٠ ثدياها الملفوفان بالقماش الناعم كانا يحيطان بمنخفض واسع برزت منه عظام الصدر ٠ عندما حمدت الله على سلامتها كنت اشتهيها ،

رجل وحيد مثلي يحق له أن يحلم بامرأة شهية · الركبتان آه الركبتان المنزلقتان لو انهما ركعتا على الأرض لركعت أنا أيضاً وتقابلنا وجهاً لوجه ، أنفا لأنف جبينا لجبين ، فماً لفم ، ريقاً لريق · لو أنها استلقت أرضا لاستلقيت أيضا ···

استدعاني الضابط الى مكتبه ، وكان رقيقا بشكل أثار شكوكي · جلست أمامه بتهذيب بالغ ولم أرفض السيجارة التي قدمها لي ، قال لي بأبوة كبيرة (رغم أني اكتشفت مؤخراً انه أصغر مني سناً):

ـ هيا وحدثنا عن الموضوع من أوله

قلت منجذباً الى وجهه السمح :

ـ كنت متجها الى عملي ··

ـ وماذا تعمل ؟

ـ محضر فني في قسم الكيمياء

ـ وما علاقة الفتاة بالكيمياء ؟

فاستجبت للمزاح الذي أطلقته أسارير الضابط فهتفت بمرح :

ـ الانسان يا سـيدي معادلات معقدة لا يحلها سوى الكيمياء ٠

قال الرجل بجفاف مفاجيء :

ـ ثم ماذا حدث ؟
ـ كنت أقف على الطرف الآخر فشاهدتها
ـ ثم ماذا حدث ؟
ـ شيء لا يصدق ٠
ـ ما الذي لا يصدق ؟
ـ الشيء الذي حدث ٠

ثم راجعت نفسي فتوقفت عن الكلام ، هـل يصدقني مثل هذا الرجل ، ثم أني لست مكرها على الادلاء بأية كلمة ما دمت لا أقف على أرض الاتهام ٠
صاح الرجل وقد نفد صبره :

ـ هل تحاول خداعي ؟

نظرت الى رأس القلم الثمين الذي جعل يدق به الطاولة من عقبه ، وتمنيت من أعماقي أن يخطيء فيدق الطاولة بالرأس الذهبية ، وما هي لحظة مرت على غضب الضابط حتى انتفض كالملسوع وقـد

تطايرت ذرات الحبر وجعل ينظر الى رأس القلم المكسـور ، وعندما انتقل بعينيه المدماتين الي أحسست بابتسامة تجهض مـن عيني وانتقلت الى الزنزانة تدفعني يدا المساعد الكبيرتان كمروحتين •

يبدو أنني كنت الجاهل الوحيد في هذه المدينة، فشهرة رئيس المخفر طبقت الآفاق ، سكان القرى المحيطة يعلمون الكثير عن هذا الضابط ، والناس في الأحياء القريبة والبعيدة يتحاشون بطشه فيبتعدون عن طريقه •

قال المخنث متسائلا :

ـ ضربك بالعصا وتبتسم !

ـ لم يضربني ، بل ضرب قلمه •

هتف الثالث بشوق :

ـ أي قلم ؟

ـ ضرب قلم الحبر بالطاولة فكسر الرأس الذهبية •

ـ لا بد أنه هدية من احدى داعرات علب الليل المنتشرة في منطقته •

قال الكريه من أنفه :

ـ لقد ضعت يا بني ، أعرف رجلا لجأ الى القانون لمقاضاة رئيس المخفر ، فضيق صاحبنا عليه الخناق حتى هرب الرجل من المدينة ٠

ـ ولكنني لم أتسبب في كسر قلمه ٠

وتساءلت في نفسي : هل صحيح أني لم أتسبب في كسر قلمه ؟ ألم أتمن ذلك !

كان لابـد من الالفة مع الموقوفين الثلاثة ٠ تبادلنا السجائر ، ومن ثـم النكات ، تلتها بعض الأحاديث الشخصية ٠

ـ لم أتزوج بعد ، يبدو أني نسيت ٠٠الأعمال كثيرة ٠

ـ صاحباتك كثيرات اذن ٠

كان الذي سألني يملك فندقاً مشبوهاً ، والمخنث الذيوقف بقربه واحد منمقتنيات فندقه ، والثالث ادعى انه مخبر صحفي كان قد شيع أخباراً سيئةعن رئيس المخفر فأوقفه ٠ قلت لهم بثقة :

ـ لن يطول الأمر بي ، يوم يحتجزني •• ثم

فضحك الصحفي وقال متهكماً :

ـ رجل طيب •• يبدو انك لم تغادر مخبرك••
من المختبر الى البيت والعكس صحيح •

وضحك الجميع بما فيهم أنا •

في نهاية الليلة ، أيقظني صوت المساعد فرفعت ذقني عن المقعد الخشبي (آنذاك أحسست بألم بالغ) فرأيت من خـــلال عيني المطموستين بالتعب وجه المساعد الخشن • قال لي « اتبعني » فتسللت من الزنزانة وأنا على يقين من الافراج عني فتوددت الى الرجل قائلا :

ـ لن أنسى لطفك يا سـيدي آثناء زيارتي
القصيرة لكم •

فلم يجب ، فتح باب الرئيس بأدب ليتركني أمامه وانسحب كالجرذ • قال الضابط والكلمات تتدحرج في فمه الذي أوصل رائحة الخمر الي :

ـ هيا وحدثني بالتفصيل عن الموضوع •

ـ أي موضوع يا سيدي !

ـ الموضوع الذي تخفيه عني ٠

ـ لا أخفي عنك شيئاً ٠ كنت ماراً في طريقي وحدث ما حدث ٠

استوى الرجل مترنحاً ، ولكنه ما لبث أن تماسك والمسدس الذي أخرجه من الجراب قد أمده بالثبات وصاح بهدوء :

ـ أستطيع أن أصوب الى رأسك ، كنت بطل الرماية في الكلية ٠

فابتلعت ريقي وابتسمت في وجهه ، ورغم الضوء الشاحب في الغرفة القديمة والتي بدت كمقر سابق لشهبندر التجار (هي كانت فعلا) ، فانه لمح الابتسامة فابتسم بدوره ٠ أحسست بالراحة وأنا أقول له :

ـ هل أستطيع أن أعود الى بيتي ؟
ـ هل عندك أولاد ؟
ـ لا ، لا لم أتزوج بعد ٠
ـ أحمد ربك فلن تخلف من ورائك أيتاماً ٠

ـ ولكنك لا تتكلم جداً يا سيدي ·

فزلزلت الأرض أركانها ، فيما صوته يدوي غاضباً :

ـ هل أنا مهرج ؟

ـ لا ·

ـ من أنا اذن ؟

ـ الرئيس · · هنا

ـ واذا أمرت ؟

ـ تطاع

طوى المسدس الى أسفل وهز برأسه فيما يقول:

ـ أحسنت ·· تستطيع أن تذهب

ـ أأعود الى بيتي ؟

ـ بل الى الزنزانة

كان الرفاق الثلاثة قد أيقظهم الانتظار وبادرني المخنث بالتهنئة على سلامتي فقلت له :

ـ ماذا كنت تتوقع ·· ألا أعود ·

فقال الصحفي هامساً :

ـ لست هنا أول مرة ٠٠ فقد وضعني الرجل منذ سنة في برميل أقذار ٠

ـ ولكن ، لماذا ؟

ـ رجل مرح ٠٠ يعنى بتسلية نفسه

ـ ولكنني لم أسبب له ضرراً

ـ هو الذي يحب أن يسبب الاضراراياعزيزي ، هذا من حقه ٠

كانت الزنزانة تجأر بالملل الغاضب ٠ الجدران مائلة وتهدد بالسقوط والأرض رطبة كجرح متقيح ينز ٠ لم أنا هنا ؟ أريد أن أعود الى مختبري الى سريري الحديدي المريح ٠ يجب أن أحتج ٠ قررت أن أتقدم باحتجاج شديد اللهجة كمـا يفعلون في المؤسسات المحترمة ٠ قـد أكتفي باعتذار رسمي ، آنذاك أغفر له جميع أخطائه ٠ أيها الثلاثي الطيب انما أنا رابعكم المهيض الجناح ٠ يا أهل الكهف ٠ وشعرت بالظلام تنسجه الكآبة شبكة عنكبوت هائلة الحجم ٠ رأس الرئيس معلقة على الشـباك كنملة سقطت في الفخ ، استيقظت خوف أن يحدث شيء ٠

قرصت من فخذي فعلمت أن المخنث قد أعلن حربه علي •

مرت لحظات قبل أن أحس بأصابعه الديدانية تبعثر القشعريرة على سطح الجلد الناعم ، انتفضت في مكاني وقد قبضت على كفه فلامست عظامي عظامه فندت عنه آهة ، كانت ذراع مليئة بالشعر تلتف حول عنقي وتضغط فيما آهتي تختلط بآهة المخنث • همس الصحفي في أذني :

ـ تتطاول على شاب رقيق ، يا لك من متعسف •

فقلت بصوت مختنق خرج من حنجرتي بصعوبة :

ـ هو الذي اعتدى علي

فقال صاحب الفندق المشبوه :

ـ لقد زادت تصرفاتك عن حدها ، وما عدنا نحتملك •

في الصباح الذي لم نميز نوره من ظلام المكان ، أفرج عن المخنث ليلحق به صاحبه بعد قليل ، ثم الثالث ، بقيت وحيداً في الزنزانة أتأمل ، بهدوء ، مأزقي • في البدء كانت الفتاة ، ثم رئيس المخفر ،

وجاء الثلاثة الذين خلفوا في نفسي حقداً هائلا ٠
قلت لنفسي « ولكن ما ذنبهم » ٠

وكانت آخر مرة أرى وجه الرئيس هي الآن فيما أنظر من خلال عدسة المجهر ٠ عدت الى النافذة أغطي السماء بسحب الدخان ، لقد أخافتني العدسة، هل يمكن لحقدي أن يصل الى ذلك الشكل ؟ سأتغلب على مشاعري وأتابع حياتي التي كانت هادئة ٠ لقد كسر قلمه بنظرة وأريد أن أكسر رأسه ، ولكنه أفرج عنك ٠ حومت في المختبر الذي أظلم بياض جدرانه ٠ استعرضت حياتي ، حياة الوحيد الذي عقد قرانا غير شرعي على أنابيب بأطوال مختلفة وعدسات وموازين دقيقة ٠ تبا لي هل يمكن لعيني أن تصيب !

لا يمكن لما رأيته تحت العدسة أن يكون أمراً حقيقياً ، فتأكدت٠ فزعت لأن رقبته المجزوزة كانت ماثلة أمام عيني ، بالالوان الطبيعية كانت واضحة ، والعينان المغمضتان عينا قتيل ، خرجت الى الجدران فكان وجهه على كل مربع من مربعات البورسلان ٠ صرخت فاهتزت كفتا الميزان واختل توازن السوائل

وسقطت ذبابة في محلول ثمين وتطاير مسحوق ناعم
فتعلق في الهواء · طرق الباب فخرجت أنـا جارفاً
أمامي الهدوء والوقار والطمأنينة · في الشـارع
ركضت كالفزع ، سقطت على الاسفلت بقعة لهفة ·
عبرت الليل وخرجت الى النهار · قرأت الجرائد ،
بين السطور دسست فضولي ،وفي الصفحة الثالثة
كانت صـورة الجريمة البشعة التي ارتكبها رجل
مجهول ضد رئيس مخفر فجز رقبته بسكين ، كانت
صورة الجريمة تلك تملأ الأعمدة بالصور والكلام
فهرعت الى أقرب مصدر للماء أحاول أن أغسل كفي
فلم أفلح لأن نقطة واحدة لم تنزل من الصنبور الذي
بدا أنه لم يستعمل منذ مدة طويلة ·

قضية الشيخ الواحدي

حكم بالاعدام على الطبيب الواحدي الملقب بالشيخ الواحدي ، وقد جاء في حيثيات الحكم أن تنفيذه رهن بارادة الحاكم • فأحضر الرجل مكبلا بالسلاسل والشيخوخةوالقي عند أقدام الحاكمالذي قال له من بين أسنانه البيضاء :

ـ ها أنت تحت رحمتي بعد أن كنت تحت رحمتك •

ـ لم تكن يوماً أيها الحاكم تحت رحمة أحد ، على يمينك سلاح وعلى يسارك سلاح ، فمم خوفك ؟

ـ لسانك أيها الشيخ ٠

ـ لساني ! لساني سيطير بعد قليل مع رأسي ٠

ـ قد نقطعه ٠٠

ـ لساني أم رأسي ؟

ـ لسانك

ـ مضيعه للوقت أيها الحاكم ، اقطع الرأس فتختصر من الوقت ما يزيد في وقتك ٠

وأشار الحاكم الى طرف المكان وقال متباهياً :

ـ أترى الى فوائد العلم أيها الرجل ، فرن جديد يعمل بلا وقود ، اذا أصبحت فيه لم تمس من أهل الدنيا ٠

ـ اذن فاعدامي حرقا !

ـ ستكون أول الداخلين اليه ، فهو حديث العهد ، وهذا شرف لك ٠

ـ اذن فما الذي تنتظره ، أدخلوني فرنكم كي أبرد ٠

ـ مقبل على الموت وتسخر !

ـ ومن قال اني أقبل على الموت ؟

ـ الحكم عليك •

ـ موتي هو البداية يا سيدي الحاكم •

ـ تعتقد اننا نخشى سخريتك •

ـ اذن فما الذي تنتظره ، هيا وأوقف السخرية قبل أن تصبح جداً •

فتأمل الحاكم ذل الشيخ المتجبر وهز برأسه كمن يفكر وقال :

ـ تعتقد أنني أخافك •

ـ أعتقد أنك تخاف نفسك •

ـ وممَ أخافها ؟

ـ تخاف أن تخونك فتعفو عني •

ـ هل عدت الى أساليبك في الايحاء

وأكمل الحاكم غاضباً :

ـ أو تظنني واحداً من أتباعك السذج •

ـ بل أثيرك حتى تجهز علي فتنقذني من تسليتي لك •

ـ أنت تسليني ! أنت تثير اشمئزازي •

ـ هذا واضح يا سيدي ، ولذا فأنت تريد اعدامي ٠

ـ أنت الذي أردت اعدامك ٠

ـ أو تعتقد أن عاقلا يريد أن يموت ٠

ـ خرقت القوانين ، ومن يفعل يمت ٠٠

ـ لم أخرق قانوناً ، الا اذا اعتبرت المساس بحقوقك خرقاً للقانون ٠

ـ أو ألست أنا الذي أمثل القانون ؟

ـ ما دمت تقول ذلك وعلى يمينك سلاح وعلى يسارك سلاح ، فأنت مصيب ٠

ـ ها قد عدت الى سخريتك ٠

ـ أو تسمي وصف الواقع سخرية ؟

وانتفض الحاكم في مكانه وأشار الى الجنود المدججين بالسلاح أن يبتعدوا ففعلوا ، وقال فيما ينفض يديه :

ـ ها قد ذهبوا ، فماذا بقي لي لأخيفك ؟

ـ لم تخفني من قبل حتى تفعل الآن ٠

ـ اذن فشخصي هو الذي يخيفك ؟

ـ تماماً يا سيدي ، ان الذي يخيفني هـو شخص مثلك ، يملك كل شيء ولا يفعل أي شيء ٠

فصاح الحاكم بعصبية غير مألوفة :

ـ أو تعلمني أيها الشيخ الخرف ٠

ـ لست بخرف والا أفرجت عني ، ثم اني لا أريد أن أعلمك ليأسي من نتيجة عملي ٠

فصر الحاكم بأسنانه وقال متضاحكاً :

ـ أعلم ٠٠ أعلم أنك تغيظني ، فالصائر الى موت يملك حق الاسراف في الكلام ٠

ـ لذا نجدك تملك حق الاسراف في الاساءة الى كل الناس ٠

ـ تقصد أني صائر الى الموت ٠

ـ ألا اذا داخلك شعور بالخلود ٠

ـ وهل تعتقد خلاف ذلك أيها الشيخ ؟

ـ ما دامت تلك فكرتك فلم أنت خائف مني وتريد قتلي ؟

ـ لأنه بموتك حياتي ٠

ـ القضية اذن أنا أو أنت ٠

ـ تماماً ٠٠ الا اذا خضعت لي ٠

ـ وهل يخضع الخير للشر ؟

ـ دعك من ذلك ، فلن أنقاد الى حماقتك في محاولة اغاظتي ٠

وقفز الحاكم بخفة نحو الشيخ وأمسك به من كتفيــه وهزهما ، وفيما ينظر الى عينيه المشعتين قال له :

ـ أمامك الآن فرصة ٠

ـ العفو عني !

ـ ها قد بدأت تعقل يا شيخنا ٠

ـ أنت تعفو عني اذا خضعت لك ؟

ـ لا ٠٠ فليس هذا بهدفي ، لا أطلب خضوعك تماماً بل اني أساومك ، وثق أنها فرصتك الوحيدة ٠

فصمت الشيخ مطرقاً وتمتم :

ـ لو أني ساومت من قبل لكنت بقربك ٠

تراجع الحاكم بعنفوان غاضب ورمــق الفرن بنظرة سرعان ما انتقلت الى الأسير ، فقال الشيخ مرحاً :
ـ انت تفكر حتماً في تجربة فرنك الجديد ٠ أنا مستعد لتلبية طلبك يا سيدي ٠

ـ أعلم أنك مشاغب وخطر ، ولكنني لم أعلم من قبل أنك مجنون ترفض فرصة تنقذ فيها حياتك ٠

ـ لو أعلم أن ثمة فرصة مقبولة يمكن لها أن تنقذ حياتي لما رفضتها ٠
ـ حسن ، فنحن نتفاهم ٠
ـ بل نتحادث ٠

ـ نتحادث ! وهــل تعتقد أيها الرجل انك هنــا لتسامرني ٠
ـ أنا هنا لأموت ولكل محكوم بالاعدام فرصة في الكلام ، وقد انتهت فرصتي ٠

ـ أيها الرجل الغريب الافكار ، أعرض عليك فرصة لانقاذ رأسك فترفضها ٠

ـ ومن قال لك اني أرفض ؟

فتمدد الحاكم في جلسته على العرش البلوري الذي كان يشع ببريق لم يخطف عيني الشيخ . وقال الحاكم متنهداً :

ـ لقد قلبت موضوعك على جميع وجوهه وأخذت آراء الحكماء ورجالي المختصين وعرضت أمرك على العقل الالكتروني ، فلم يكن هناك سوى حل واحد .

ـ اعدامي !

ـ تماماً .

ـ لذا فأنا معرض لخوض تجربة حاسمة مع فرنك الذي لا يستخدم الوقود .

ـ هنا يمكن القول بأنني أحدق التفكير في موضوعك .

ـ هل نستبدل الفرن بالمقصلة مثلا ؟

ـ يا لك من همجي .

ثم اعتدل الحاكم في جلسته وسرح ببصره نحو الجدار الكبير الذي تتصدره لوحة العدالة . وقال بهدوء بالغ :

ـ ان اعدامك أمر لا مفر منـــه ولكنني فكرت ، احتراما لخصومتك القاسية في أن أستبدل عقوبة الاعدام بالسجن المؤبد •

ومع أن الفكرة لاقت قبولا حسنا لدى الشيخ فانه لم يعلق عليها بكلمة أو اشارة • جعل يفكر :

« تلك فرصتك لتنقل الى الآخرين أفكارك • ما فائدة موتك وقد تلقى في السجن واحدا أو أكثر، اذن تكون هناك فائدة » •

تساءل الشيخ بتوجس :

ـ وما الثمن ؟

ـ لا شيء يذكر •

ـ هيا وسم شروطك •

ـ هو شرط واحد •

ـ وما هو ؟

ـ أن تستعطفني •

ضحك الشيخ حتى اهتزت قيوده فأحدثت صوتا كأنه احتكاك أسنان رجل مقرور وصاح :

ـ أن أستعطفك ! ماذا تريد أن أقول لك ؟ ارحم شيخوختي أو أتوب اليك يا مولاي ٠

ـ لا ٠٠ بل أطلب الرحمة ٠

ـ وكيف تقترح أن تكون صيغة الطلب ؟

ـ اركع على قدميك وردد بخشوع « الرحمة ياسيد الجميع » ٠

ـ أما عن الركوع فقد أجبرني عليه جندك من قبل، وأما الخشوع فلا بأس علي منه فهو يهذب النفس، وأما عن الرحمة ٠٠٠

وتوقف الشيخ فيما انتصب الحاكم منتصرا وقال:

ـ ها قد بدأت تعقل ٠

ـ ومتى أستطيع أن أردد طلبك ؟

ـ متى تشاء ٠

فانحنى الشيخ لتلامس ركبتاه الأرض ، وكان يفكر في الايام التي يمكن أن يقضيها في السجن ، آنذاك ابتسم وجعل يهتف بخشوع « الرحمة يا سيد الجميع » ٠

فصاح الحاكم :

ـ كررها ثانية •

ـ الرحمة يا سيد الجميع •

وفيما صاح الشيخ يردد جملته ، كانت القاعة المصنوعة من الالومنيوم قد اكتظت بالناس من حاشية الحاكم تسربت من كل المداخل ، وفي المرة الثالثة عمت ضحكات الناس وكأن السخرية من الشيخ تفتحت ينابيع في أرض القاعة البلاستيكية ، فرفع الرجل رأسه وعلم أنه وقع في الفخ •

صاح الحاكم بهمجية :

ـ عفونا عنك ، وبات اعدامك سجناً آبداً •

فصفق الحضور بآلية ، وأشار الحاكم الى الجنود ، فحملوا الشيخ بعيداً وكانت الشماتة في عيون الحاشية تحاصر عيني الشيخ الزائغتين ، وفيما كان يسرد لنفسه « خسرت معركة وربحت حياة » صاح الحاكم من مكانه في صدر القاعة :

ـ أرجو لك اقامة سعيدة •

فردد الشيخ بضعف :

ـ شكراً لك •

ولكن الحاكم ما لبث أن قال :

ـ لم خصامنا أيها الشيخ ؟

ـ ولم تقاربنا !

وكان الظلام الذي خيم على الزنزانة التي رمي الشيخ على أرضها ، قد نفذ الى العظام ، فتكوم في ركن رطب يفكر في موقفه من طلب الرحمة ، أمصيب أم مخطيء ، ولكن أنينا خافتا خرج من ركن آخر أيقظ الشيخ ، فسعى الى مصدر الصوت فاذا برجل نائم يتقلب على فرشته الخشنة ، آنذاك أدرك الشيخ انه مصيب في طلب الرحمة رغم ابتسامات الشماتة •

في الصباح كان ثمة نـــور يسقط على الوجوه الفرحة • هلل السجين قائلا :

ـ مات زميلي في الزنزانة منذ شهر •

ـ وكم مكثت هنا ؟

ـ عشر سنوات ولم يبق لي سوى أسبوع لأستعيد حريتي •

ـ ولم سجنت ؟

ـ ضربت شرطيا فأدميت أنفه •

ـ ولم ضربته ؟

ـ لأنه ألقى القبض علي .

ـ ولم ألقى القبض عليك ؟

ـ لأني كنت أسرق .

ـ وماذا سرقت ؟

ـ خبزاً ، وأشياء لم أعد أتذكرها الآن .

ـ ولم سرقت ؟

ـ لأنني كنت جائعاً ، وأولادي كانوا يصرخون .

ـ هل أنت نادم الآن ؟

ـ نادم لأني لم أجهز على الشرطي تماماً .

ـ لكنت أعدمت اذن .

ـ وما الفرق . عشر سنوات في هذا الظلام ، ومن يدري ماذا حل بعائلتي .

ـ انها تنتظرك حتماً .

ـ وماذا يمكن أن أفعل لها ؟

ـ تعينها على الحياة .

كان الشيخ يفكر في السجين ، كمن وجد كنزاً .

فأمامه أسبوع ينقل اليه كل أفكاره ومبادئه ، واذا هو نجح تكون الرحمة التي طلبها صاغراً قد أثمرت رحمة طيبة · السجين الآن أرض خصبة يمكن لها أن تحتضن كل البذور · في ظلام الليل تحدث الشيخ:

ـ لم يسرق الانسان ؟

ـ لأنه جائع ·

ـ ولماذا يجوع ؟

ـ لأنه لا يجد طعاماً ·

ـ ولماذا لا يجد طعاماً ؟

ـ لأنه فقير ·

ـ ولماذا يكون الانسان فقيراً ؟

ـ لأن هذا هو قدره ·

توقف الشيخ في الظلام ، هز السجين من كتفيه وقال له :

ـ لا يريد الله للانسان أن يجوع · الله خلق الشمس للضياء فلم يحبسون عنا ما أراده الله لنا ·

ـ لا أدري ·

وفكر الشيخ في أمر الرجل ، وعلم انه قادر أن يعلمه كيف يمكن له أن يدري ·

ـ هل تحب الحياة ؟
ـ طبعاً ٠
ـ هل تحب السجن ؟
ـ لا ٠
ـ اذا كانت فأس في يدك الآن فماذا تفعل ؟
ـ اهدم حائط السجن واهرب ٠
ـ أو تعلم ما هو الفأس الذي يملكه كل انسان ويهدم بـه ما يمنع عنه الحياة أو الحرية أو نور الشمس ؟
ـ لا أعلم ٠
ـ ألا تعلم أن عقل الانسان كالفأس ؟
ـ لم أسمع بمثل هذا الشيء من قبل ، عقلي أنا كالفأس !
ـ تماماً يا بني ٠
ـ هل تعني انه بامكاني أن أنطح هذا الحائط برأسي فينهد فاهرب ؟

بعد يوم تمكن الشيخ من وضع صورة العقل في يدي السجين فابتسم الرجل وقال :

ـ الآن فهمت ، وماذا يمكنني أن أفعل ؟

ـ استخدم عقلك دوماً •

ـ ولكنك قلت انهم قد يصادرونه في أية لحظة •

ـ يصادرونه لفترة ، الا أنهم لا يستطيعون قتله •

ـ وهل يمكن للعقل أن يقتل فيموت ؟

ـ اذا كان ضعيفاً أو هشاً أو جامداً •

ـ وكيف يكون ضعيفاً ؟

ـ اذا لم يقو على مقاومة الآخرين فاستسلم لهم •

ـ وكيف يكون هشاً أو جامداً ؟

ـ هشاً ، اذا نفذت اليه كل الافكار الأخرى فبات كالورقة الهشة تتلاعب بها الرياح كيفما تشاء • وجامداً اذا لم يتحرك أو يتقدم أي اذا لم يفكر •

فتساقطت الدموع من عيني السجين ، ليكفكفها بطرف كمه • شعر الشيخ بالنشوة وقال لنفسه « لقد انتصرت عليك أيها الحاكم » • تابع الشيخ حديثه :

ـ والتفكير يا صاحبي هو دليلنا الى أن العقل يتمتع بصحة جيدة ٠

فعادت الدموع الى وجه السجين ٠ هتف الشيخ لنفسه « ألهذا الحـد يمكن للمنطق أن يؤثر » ٠ تابع الشيخ :

ـ وكما حدثتك من قبل ، فان العقل السليم لايقبل أن تسود من حوله أشياء وظواهر غير منطقية ٠

فاجهش الرجل بالبكاء ، آنذاك أخذه الشيخ بين ساعديه وقال له بتأثر بالغ :

ـ لم البكاء يا بني ؟

فلم يجب السجين بكلمة ما ، ظل يبكي كالأطفال وتساءل الشيخ « أتراه يبكي فرحاً لاقتراب خروجه من هذا المكان ، أم يبكي حزناً لفراقي » ٠

ـ لم البكاء يا بني ؟

آنــذاك شرق السجين دموعه وقال مــن خلال التنهدات :

ـ وأنت تتكلم ٠٠ وأنت تحدثني عــن كل شيء يا شيخي ٠٠

وأنت تهز برأسك بثقة ، تذكرته ٠٠

ـ من تذكرت ؟

ـ لحيتك السمحة يا شيخي ذكرتني بلحية التيس الوفي الذي كان يلازمني أيام حريتي ٠

صاح الشيخ في البئر المخنوق ، صاح كالمسعور مناديا الحاكم :

ـ اسحب طلب الرحمة ٠٠ اطلب اعدامي ، لا رحمة بي الا باعدامي ٠ الموت لي ٠ اقتلوني أق ٠٠٠ ت ٠٠٠ او ٠٠ ني ٠

لم يستجب للنداء أحد بسبب بعد المسافة بين الحنجرة التي كانت تصرخ والاذن التي تسـمع ، ورغم انتشار العيون الالكترونية تنقل جميـع التفاصيل بما فيهـا خفقات القلب الذي تسارع وتسارع ٠٠٠ فان أحـداً لم يلاحظ تباطؤ دقات القلب الذي تضخم وتضخم حتى بات كبيراً بشكل لا يمكن تصديقه ٠

الحكاية المختصرة لصاحب الثوب الأبيض

سألني رجل من الجالسين قبالتي :

ـ ولم تصر على ارتداء هذا الثوب الأبيض ؟

وأعقبت سيدة بصوت متهدل :

ـ انه ملفت للنظر ، لكن لا يبدو أن موضة السنة تنطبق عليه •

فقلت مسالما وقد أطرقت الى الأرض :

ـ انه كفن ، مجرد كفن أبيض •

فشهقت امرأة ، وصرخ رجلان ، وساد الذعر مكان اللقاء ، فانتظرت الهدوء الذي طالت عودته ، وحين استتب الأمن رحت أحدث العيون المتلهفة عن الحكاية :

– حتى لا نبتعد عن الامانة التاريخية ، فانني سأحدد تاريخ الحكاية . وهو على وجه الدقة يوم انتشر وباء تعفن الخلايا الدماغية وهو وباء على ما أذكر يسبب النسيان والغثيان ، ولم تستطع السلطة أن تمتقل هذا الوباء، وتضعه عند حدوده . يبدو أن أحداً ما عاد يذكر ذلك اليوم الأسود ولكنني أذكره جيداً فقد راقبت الأموات يشيعون بالعشرات ، والصحف تخرج مجللة بالسواد ونشرات الأخبار في الاذاعة تدمي القلب ..

صاحت امرأة :

– يا الهي هذا الرجل كالغراب .

فلم تسوءني تلك الصفة ، تابعت بهدوء :

– وتلاوات آي الذكر الحكيم تختلط بالألحان الحماسية ، فكأنه يوم مزخرف بالأسى والحزن ،

ولنقل انه مطرز بالكآبة ومجلل بالسواد ، واذا توخينا الدقة قلنا أنه يوم موشى بالموت خيط من ضوء النهار وخيط من ظلمة الليل ، انه شيء لا ينسى بالرغم من أن الوباء المتفشي كان يسبب النسيان ، وقد كنت حريصا على أن أحيط نفسي بالوقاية الكاملة فاغتسلت ذلك اليوم ٠

قاطعت الحديث السيدة الخائفة :

ـ أهذه سهرة أم تعزية !

ـ انما هي حكاية حقيقية ٠

وشجعتني آنسة بيضاء البشرة تلمع عيناها كقطة :

ـ حديثك مثير ، تابع أرجوك ٠

قلت من خلال الدخان المنعقد في الغرفة الكبيرة :

ـ لا أدري اذا ما كنت سأستطيع أن ألم بجميع الدقائق ، ولكنني سأحاول أن أستجمع شتات الذاكرة ٠ أين وصلت ؟

هتفت سيدة ملأت ثوب الدانتيل الأبيض الذي أحاطها بفتنة :

ـ قلت أنك اغتسلت ذلك اليوم ٠

ـ آه ، تذكرت ، كان الماء ساخنا وأنبوبة الصابون مغرية ، وكان دفء الحمام مثيراً ٠٠

صاحت السيدة الخائفة :

ـ كنت تتحدث عن الوقاية ٠

ـ آه ، تذكرت ، كان لابـد لي من الوقاية ، فالوباء الذي انتشر يومئذ ٠٠

قاطعني رجل استيقظ لتوه من غفوة قصيرة :

ـ أي وباء ! هل عادت سيرة التلقيح من جديد ، حقنـا منذ أسبوع بجرعة كوليرا ٠٠

فقالت ذات الثوب الفاتن :

ـ أستاذنا يتحدث عن وباء سابق ٠

وأكملت أنـا وقد بدت صورة الماضي أكثر اشعاعاً :

ـ كان الوباء مرعباً ، ودفع بناس كثيرين الى الهجرة فارتفعت أجرة المغادرة الى تسعة أضعافها ، ولكي أكون أكثر دقة باتت الأجرة ثمانية أضعاف

وثلث • أليس أمراً عجيباً أن ترتفع الأسعار بمثل هذه الحدة ، أيها السادة أنا أعلم أن الحروب وحدها هي التي تسبب مثل ذلك الجنون في الأسعار • ان ارتفاع الأسعار أمر يثير الجنون فعلا •

قال رجل :

ـ الأوبئة والحروب سيان •

ـ سيان فعلا ولكن •• آه تذكرت ، فان تدفق الناس من العاصمة كان واحداً من الأسباب • يبدو أن حمى الخوف من الوباء قد اجتاحت العاصمة بنسبة كبيرة • كان هناك بعض المسئولين في الدولة قد هرولوا أيضاً الى شوارع مدينتنا يلتمسون الشمس الساطعة • ربما تتساءلون الآن عن علاقة الشمس بالوبـاء •

تساءلت المرأة الخائفة بغضب :

ـ أمرك عجيب ، كيف تقول انهم هربوا من الوباء ليحتموا بالوباء •

وصرخت : « لم أعد أطيق ذلك التهريج » •

راجعت ذاكرتي وتبين لي أنني وقعت في فخ

التشابه بين واقعتين ، فاستقمت في جلستي وجعلت أعتــذر :

ـ انه في الحقيقة أمر يدعو للأسف أن أخلط بين حكايتين ، لهذا فأنا أتقدم باعتذار حار يتناسب وخطورة الخطأ ٠

هنا أصرت ذات الثــوب الفاتن أن أعــود الى الحكايــة :

ـ قلت ان ذلك حدث يوم تفشي وباء الأدمغة ٠

ـ تعفن الخلايا الدماغية يا سيدتي ، ولا أظن أحداً ينسى ذلك اليوم ٠

تعالت بعض الاصوات تؤكد أن أحداً لا يذكر مثل ذلك اليوم ، الرجال والنساء كانوا قد أجمعوا على النسيان ، لذا فقد قلت :

ـ لذا فأنا أجد نفسي ملزماً بتوضيح كل شيء ٠

قال رجل ، يبدو أنه زوج لواحدة من النسوة اللواتي جلسن على حدود هلال من الخوف الممزوج بالتشوق :

ـ أفضل أن تعود الى بداية الحكاية ، فما عدت بقادر على استيعاب كل تلك الاقوال المتضاربة ٠

فاعتدلت في جلستي وجعلت أرسل الجمل الهادئة المقسمة الى مقاطع أحسست أنها باردة بعد قليل :

ـ حدث ذلك يوم انتشر الوباء ٠ خرجت من داري المحصنة كقلعة ٠ كان الذعر والموت ٠ كان الناس يشيعون بالمئات ٠

ثم أخذت سيجارة أشعلها لي أحد الجالسين بعود ثقاب شديد التوهج فأغمضت ، ثم تدفقت الى ذاكرتي مئات الحوادث فهتفت :

ـ أعتقد الآن انني أستطيع أن أحدثكم عن الموضوع بالتسلسل والتفصيل ٠

فساد المكان سكون أقرب الى الانغلاق الخانق فكسرت الحواجز وتحركت هاتفاً :

ـ اغتسلت ٠ خرجت الى الشارع ٠ جلست وراء المقود ٠ تحركت بي السيارة نحو العمل ٠ كنت أفكر بنفسي وبالأولاد فكرت أيضاً ٠ زوجتي كانت غارقة

في فتــح الفنجان • الشوارع كانت نزقة وتتحرك بقلق • رغم الحزن كانت قلقة •

كان الوجوم قد بدأ يخيم على أعضاء وحواس الجالسين فكبحت جماح السيارة • قلت :

ـ كان الضوء الأحمر فتوقفت • فكرت هل يمكن لهذا الوباء أن يصيبني أو يصيب أحداً من أفراد أسرتي ؟ حوالينا ولا علينا • كان الضوء الأخضر فتحركت • معظم الصيدليات كانت مغلقة • الأفران تخبز قلق المنتظرين وتحرقه أحياناً • مررت مسرعاً عبر الساحة الرئيسية التي طالما كرهتها لما يجري على رقعتها الفسيحة من احتفالات رسمية أو عمليات اعدام أو حلقات رقص جماعي أو تجمعات خطابية نارية ، وأنا بطبعي ملتزم بالقاعدة الحرفية التي باتت معروفة في المدينة « تمنع التجمعات لأكثر من خمسة أشخاص » وأنا وعائلتي خمسة والحمد لله • ورغم انني أحتفظ بذكريات سيئة عن كل واقعة من وقوعات وجود أسرتي فانني أحبها وأتفاءل بها •

وانبرت الآنسة البيضاء البشرة قائلة :

ـ من هي التي تحبها ؟

ـ أسرتي ٠

ـ ولكنك قلت أنك تحتفظ بذكريات سيئة ٠٠

فاستجمعت شتات المذاكرة وأجبت :

ـ مثلا ، لقد تزوجت ، أقصد أن يوم زواجي الأول يصادف الذكرى السنوية لسلخ اقليم من أقاليم الوطن عن الجسد الأم وولد لي البكر صبيحة حركة مسلحة فصلت بلدين بعضهما عن بعض ، وكنا بلداً واحداً ٠ وأما ابنتي فقد جاءت الدنيا عشية انقلاب عسكري قامت دبابة فيـه باقتلاع الاسفلت من الشوارع والطمأنينة مـن البيوت والرؤوس من الأجساد ٠

ـ أنتم عائلة محزنة حقاً ٠

ـ ولكننا سعيدة ٠

ـ وماذا عن العضو الخامس في أسرتكم السعيدة ٠

ـ أي عضو ؟

ـ الخامس ٠

ـ ولكنني لم أرزق سوى باثنين فقط ٠

ـ ولكنك قلت ان عائلتك خماسية ٠

ـ آه تقصدين القط ٠

ـ أي قط ؟

ـ العضو الخامس في أسرتنا ، لقد التقطته من الشارع وكان قطاً مهاجراً بل قل لاجئاً ، حزيناً كان، ووسخاً ، ولكنه الآن يلعب دوراً فعالا في ملاحقة الفئران التي يعج بها البيت ٠

صاح الرجل الذي بات اليأس أحد علامات وجهه :

ـ أرى أننا أضعنا الحكايــة ، كنت تتكلم عن الساحة ٠

ـ آه لقد تذكرت ، فتلك الساحة التي أكرهها ، قطعتها بلمح البصر ٠

تساءلت السيدة ذات الثوب الفاتن :

ـ وكانت الساحة فارغة ٠

ـ بل كانت مليئة بالموت ، حتى لقد خيل الي أن بعض الجثث كانت معلقة عــلى لافتات انتصبت على الأعمدة المحيطة بالساحة ٠

ـ وماذا فعلت ؟

ـ وما دخلي أنا لأفعل شيئاً للجثث المعلقة ·

ـ ألست طبيباً ؟

ـ طبيب ! ومن قال لك يا سيدتي ان مهنتي هي الطب · آه لقد تذكرت ، فلقد لمحتـه بالقرب من الساحة ·

ـ من هو الذي لمحته ؟

ـ صديقي الطبيب ، وكان يشرع في ادارة محرك سيارته ، لوحت له فتوقف ، واتجهت نحوه مسرعاً فقابلني باستغراب ، وقد فسر لي شعوره حين قال لي انـه اعتقد أنني فقدت أحـد أفراد أسرتي ، فطمأنته وطلبت منـه أن يساعدني ، فقال لي « وكيفأستطيع » فقلت له « ألست رئيساً لوحدة الأشعة لمكافحة الوباء » فابتسم وقال « هيا معي » ·

ـ الى أين ؟

قالت الآنسة البيضاء ·

ـ الى حيث نرى نهاية الحكاية ·

ـ أية حكاية !

صاحت السيدة •

ـ حكاية الموت هذا وحكاية الوباء وما اليه •

فقلت للطبيب صديقي « ولكنني يجب أن أذهب الى المكتب فالزبائن » •
فالزبائن » •

فقاطعني الطبيب «سنذهب سوية ولا تجادلني» •

فاستسلمت لـــه ومضينا في سيارته التي تحمل رائحة مخدرة ظللت أقاومها حتى نهاية الرحلة •

صاحت السيدة ، صاحبة البيت :

ـ والى أين ذهبتما ؟

ـ في الحقيقة ، فان صديقي لم يفصح لي عن وجهته ، وان كنت واثقاً منذ البداية بأنه سيتجه بي الى المصح ، لذا قلت لـــه « أريد لقاحاً لأفراد الأسرة » فلم يجب وظل ثابت اليدين على المقود نتجه في خط مستقيم • كان الطبيب منهمكاً في النظر الى نهايـــة الطريق ، لذا فقد أجهضت أكثر من سؤال دار في خاطري • كنت أفكر في الدور النبيل الذي

يلعبه الأطباء عادة في مثل تلك الأحوال. هم وحدهم يقودوننا نحـو الخلاص ، وبدونهم لا نستطيع أن نواجه الحقائق المرعبة التي تخلقها الأمراض الغريبة أو الأوبئة الجماعية ، لذا فقد وضعت مصيري ومصير أسرتي بين يدي صديقي الطبيب وأحسست براحة وطمأنينة غمرت فؤادي فجعلت أدندن بمقطع لحن ، أكرره وأعيده حتى بت أشعر وكأنني هو الذي صاغ اللحن .

قال صاحب البيت :

ـ هلا غنيت لنا ذلك المقطع .

فلاقى طلبه استهجاناً من جميع الحضور ، فعاد الرجل الى صمته ، فيما أنا أستعد لاستجماع أفكاري التي تشتت بمعارضته . وهتفت الآنسة البيضاء :

ـ وشعرت وكأنك هو الذي صاغ اللحن .

ـ آه تذكرت ، ولكنني توقفت عن الدندنة فجأة فيما تستقبلنا مقبرة هائلة الاتســاع وظهرت لنا بوابتها وكأنها تعلق لافتة الترحيب ، فصحت عذراً « نحن ندخل المقبرة » . فقال الطبيب بهدوء « والى

أين تعتقد أننا نذهب » وتوقفت بنا السيارة في مدخل العنق فخرجنا من صندوق السيارة •

قالت السيدة الفاتنة الثوب :

ـ وهل تبعته ؟

ـ وهل كنت أستطيع أن أبقى وحيداً عند المدخل ! لقد أوغل بنا صاحبي الطبيب ، أحسست بهدوء رغم كل مظاهر الموت التي كانت تحيط بنا • مئات الرجال كانوا يقومون بلف الجثث بالأقمشة البيضاء • ورشة ، انهـا كورشة عمل • ولم يثر دخولنا اهتمام أحد لولا أن اثنين من الرجال اقتربا من الطبيب وهمسا في أذنه فأبدى صاحبي علامات الارتياح التي لم ترحني • قلت له « وما دخلي أنا في كل هذا ؟ » فلم يجبني بكلمة بل انهمك في توزيع التعاليم التي لم تصل أذني • بعد قليل طلب مني رجلان أن أخلع ملابسي ففعلت صاغراً ليقيني بأن الطبيب صديقي قد أوعز الى رجاله بمساعدتي وهكذا وجدت نفسي أرتدي هذا الثوب •

فصاح جميع الحاضرين :

ـ ثم ؟

ـ ثم ! لم يحدث شيء ، سوى أن فئة من الرجال همت علي تحاول حملي الى حفرة هائلة الاتساع ، فتذكرت أعمالي وأولادي ، فقمت بحركة بالغة الذكاء والدهاء •

ـ وماذا فعلت ؟

ـ أطلقت ساقي للريح وهربت •

ـ الى أين ؟

ـ ها أنكم تجدونني أمامكم ، ألم أهرب !

قال صاحب البيت :

ـ هل تريدنا أن نصدق كل ما ذكرته لنا من خيالات وأوهام ؟

وقالت الفاتنة :

ـ ظننتها حكاية مسلية •

واذ بالجمع ينفض عني ، فجعلت أراقبهم من خلال دخان لفافتي التي أشعلتها من عقب لفافة تركها الرجل اليائس وقام مع الآخرين ليتناولوا معاطفهم من مشجب كبير يمتد بالقرب من المدخل الصغير •

شيء غريب يلفت الانظار ، كنت أتابعه باهتمام، هو أن المعاطف التي كانت تغطي الأجساد الواقفة لم تكن لتختلف عن ثوبي الأبيض الذي لـم يثر اهتمام أحد من قبل ، فحاولت أن أسجل تلك الملاحظة، ولكنني فضلت أن أستمتع بالتدخين الذي بقي العمل الوحيـد الذي يسبب حركة ما في المكان الساكن كالمقبرة .

وفيما كنت أحس بالراحة كان صوت أحدهم يصلني كلمات متناثرة وحروفاً متقطعة لكنها لاتنسى:

ـ ر ج ل م ج ن و ن

أمسية تلفزيونية

جعل التلفزيون يرسل وهجا فأدرت ظهري لـه وأغرقت عيوني في صفحات كتاب عـن الحكمة الفيتنامية · زوجتي كانت تستخدم الابرة بمهارة فائقة في صنع « الكانافاه » ·

كانت المذيعة فاتنة ولكنني لم أر سوى تعليقها الحار على المظاهرات الاميركية ضد الحرب تتشابك مع سطور الشعر الذي تناثر أمامي كالتمائم · قالت المرأة الوقور :

ـ هلا القيت نظرة على الأولاد ٠

فتحركت ببطء نحو الغرفة المظلمة الا من أنفاس الطفلين ٠ قبلت الصغير وداعبت خد الكبيرة ٠ وفيما أعود الى الكرسي الوثير لمحت كرة القدم تتدحرج عبر الشاشة كرأس على أرض الملعب وأصوات المذيع تلاحقها بصداقة ٠ عدت الى الكتاب وقالت السيدة الهادئة :

ـ هم بخير ؟

ـ بخير

كانت زوجتي توزع اهتمامها على الشاشة وقد خرجت منها أغنية عاطفية ٠

همست بتأدب :

ـ هل يمكن لك أن تخفضي الصوت قليلا ؟

ومع أنني كررت الجملة ثانية ، فقد رأيت أن أعود الى الشعر الذي تناثر كالكلمات المتقاطعة ٠ قالت المرأة بعد أن عاد الهدوء :

ـ لا تنس أن تؤكد على دعوة عائلة المحمودي الى سهرة الغد ٠

قررت لنفسي « الشين مفتاح الشعر » ٠

ـ هل أوصيت على الطعام ؟ كان النبيذالبلغاري جيداً في المرة السابقة ٠

« والحرف الأول تجده في كلمة حرب » ٠

ـ ماذا حدث لدهان الموبيليا ؟

« فيتنام كلمة بمقطعين ، فلسطين كلمة بمقطع واحـد » ٠

ـ لقاح ابنة أختي ٠

« ما هي الكلمات التي تبتدأ بحرف الفاء الأجنبي أو العربي ٠ الجواب » :

ـ شهادات الاستثمار لفيروز ٠٠

« ٠٠ فلسفة ٠ فاشيه ٠ فانتوم ٠ فرج ٠ فوهة ٠ فيكتور » ٠

ـ والبنك لم تقرأ كشفه بعد ٠

« فراغ ٠ فدائي ٠ فناء ٠ فلسطين ٠ فيتكونغ» ٠

ـ اهمال ٠٠ مال ٠٠

« لماذا لا تتحرك » ٠

ـ أم كلثوم ٠ اسطوانـــة ٠ سمحوا باســتيراد السيارات ٠

« كانت الصغيرة تتطلع الي بشبق ، ولكنك في الأربعين » ٠

ـ ز ٠ ز ٠ ز ٠ ز ز ز ز

« في العشرين تموت الطفولة ٠ في الثلاثين يترعرع الطموح ٠ في الأربعين نخاف الناس ٠ في الخمسين تتلاشى الفحولة ٠ في الستين نراقب الأصدقاء ٠ في السبعين ، هذا يكفي » ٠

ـ ش ٠ ش ٠ ش ش ش

بعد أن انتقلت الشاشة الى نقل خارجي ، كان وجـه الخطيب يملأ الساحة ويتلوى من الحماسة فقالت زوجتي :

ـ هل تتابع الحفلة ٠

ـ يتكلمون عن الحرب والتحرير ٠

ـ دع الصورة واقفل الصوت ٠

ومع أن الصـورة كانت متدفقة فقد التصقت أصوات متداخلة بها وضاع كل شيء من جديد ٠

قالت المرأة بحركة رتيبة من يديها :

ـكلمات ٠٠ كلمات ٠٠ كلمات ٠

تحدثت الى نفسي : « كلمات ٠٠ كلمات ٠٠ كلمات » ٠

ـ لماذا لا يتركون السياسة للنهار ٠

« وماذا نفعل في الليل ؟ نقرأ الشعر ، نغازل التماثيل الباردة ، نتدثر بالصوف ونتناول التحاميل المهدئـة » ٠

ـ وما علاقة البرتغال بافريقيا ؟

« الاصفار لا تجمع ، لا ترسل أصواتاً ٠ نهيب بكم أيها المواطنون أن تلتزموا الحكمة ٠ اضبطوا ساعاتكم اضبطوا أنفسكم ٠ لقد انهزم حزام العفة وتساقط الفرسان على الأرض واعتقل الحصـان ليروض في الحظيرة ٠

« الحاء حب والباء حب ، الكاف والسـين ٠ لا ٠ ثم ٠٠ »

صاحت زوجتي بهدوء مرعب :

ـ الحكاية طويلة هيا الى النوم ·

سقط كتاب الشعر على الأرض · تعرى صدري وتطاير الشعر الذي كان مسبلا ولفحت وجهي ريح ساخنة فارتخت عضلات ساقي اللتين توترتا لفترة طويلة · جعلت أمشي على الرصيف الأسود · أحسست بأظافري تطول ، كانت طويلة فعلا ودمائي تغلي من تحت الأظافر · سمعت أغنية قرباطية تقفز في صدر الشارع الفارغ · الظلام متوتر · الأنوار متهيجة · الشبق كالضباب ينزل من الفضاء بهدوء ·

هدوء · هدوء · هدو · الهاء هائج الدال دم الواو وء ·· وء ·· وء ، طبول دم دم · الأغنية تتعاظم والحارسان يحيطان الشارع بوقار مهزوم · كنت أتدثر بجلدي أتحسس جلدي · بطن قدمي يحتك بأرض الشارع الناعمة ، انه الاسفلت الخشن المريح المتعاطف · وبدت أحجار الرصيف كوسادة حنون · من يعترض على النوم في الشارع ؟ لا أحد · الأغنية كانت تقترب وبدت الكلمات مفهومة

« نهاجر لأن الأرض أنكرتنا ، نطرد لأننا ننكر الأرض » • كأنني سمعت مثل هذا الكلام من قبل •

أريد أن أستظل بأغصان تلك الشجرة من وهج القمر الذي لمع فجأة في خاصرة السماء ثم هرول نحو السرة • كالشمس الليلية تستغز جميع الغدد. بما فيها غدد التعرق • هرعت ، كنت أندفع نحو الزقاق الضيق الذي انبلج في ابط الشارع الهادىء ، كان لا بد من أن أستظل فتوقفت • كنت الهث كالكلب ، والواجهتان العريضتان تمتدان عبر أفقي الزقاق • أنوار هزيلة ولكنها كشفت عن أجساد النساء بوضوح • عارية ومجهزة بالتفصيلات ، والاسعار متنوعة ومختلفة ولكنها محددة لكل امرأة على حدة • وقفت أمام واحدة كانت قد أخذت شكل الكرسي ، وقد ارتسمت ابتسامة شامتة على نصف وجهها الاسفل ، حمحمت ، حدقت ولكني ما لبثت أن جمدت • أعرف هذه المرأة • أليست • • لايمكن • انها تشبه زوجة أبي ، انها تشبه أمي ، فصرخت فابتسمت تدعوني رغم الفزع • أغفيت وهربت • حدقت في المرأة المقابلة ، لابد انها تترية بل تبدو

كفيتنا مية صفراء مقطعة الأثداء • كانت بطنها المبقورة تثير الشهوة ، ساقاها المنفرجتان عن فجوة معتمة ، تناديان • وقفت أحك جلدي وكأن عشباً ساماً جعل يتمدد في منابت الشعر • أحك أحك وأظافري شرهة للدم الذي بدأ يتجمع تحت البصيلات • الطبول : دم دم • الهدوء : هم هم • وعدوت ، كنت عاجزاً عن التوقف •

اذن ، هذه هي المرأة التي أريد ، كأنما خرجت لتوها من ضرع بقرة ، بيضاء ، تتنفس عبر جميع الفتحات المهداة للرؤية • وقفت أمام المرأة التي استلقت على البساط الصوفي تتلوى ببطء • هي ذي من أريـــد • أتقدم • تقدم • اقترب الهث • تدعوني • تتسارع في التثني كعنقود سمين تهزه الريح • ولكنني أسمع فجأة صـــوت طفل فالتفت حوالي لأجد عارية هناك وقد جلست القرفصاء تهدهد رضيعاً فقلت لها :

ـ ابعدي الطفل لأني أريدك أنت •

فظلت يدها تلاعب فم الطفل وعيناها تنظران

الي . لقد غاب صوت الطفل ولكن أصابعها كانت تدخل في تجاويفي وتحركني . فجأة جمدت الرؤية في البؤبؤين . وهذه أعرفها أيضاً ، لا لا بل تشبه تلك الفلسطينية التي ضاجعناها أنا ورفاقي ذات يوم . عند أسوار المضافة رفعت فخذيها لنا . وكانت تغمض .

ـ هل أنت هي .

صحت من جديد :

ـ هل أنت هي ؟ هل أنت ! هل ...

ولكنها لم تتغير أو تتبدل . والصور المتلاحقة لم تتغير بل كانت تتكرر . لقد أدميت آنذاك ركبتاي لانهما احتكتا بالتراب طويلا . كان لا بد من الهرب .

عدوت من جديد في رحاب الزقاق وكانت الرطوبة لزجة ، ولكن الصبية الصغيرة التي استدارت فجأة ابتسمت لي فتوقفت . ظهرها كان نحيلا ولكنه قوي وجميل . جلست أمام مرآة بيضاوية وجعلت تسرح شعرها الذي غطى الثديين المتفائلين . كنت

أعلم أنهـا تكلف الكثير فلوحت لها بيدي فازدادت ابتسامتها عمقاً • ثم ما لبثت أن دعتني بهزة من كتفها فالتهبت • أنشبت حافري في الارض فتناثر التراب• توسعت رئتاي فتدفق الدم الى الحويصلات• كانت طاغية ومسحت وجود كل النساء اللواتي أثار اهتمامهن لقائي الخاطف بها • كانت فتية • ناعمة كغلمان الجنة • نظرت الي بعينيها وأصابع يديها وبطن ساقها وبثنية بطنها • صرخت وهجمت عليها فارتطم وجهي بالزجاج • تحاملت على نفسي وبحثت عن مدخل فلم يكن هناك من فرجة واحدة• تحسست الزجاج بأظافري • صرخت وتوسلت•لم يكن هناك دموع لأبكي فولولت ، وكانت الصغيرة تستمر في غوايتها وتدعوني، ولم أجد حلا ولا مدخلا ولا أملا• صحت بوحشية وأطلقت العنف لساعدي فدخل في الزجاج السـميك ليحدث شقوقاً ، ووجدت لكفي مدخلا فجعلت أتقرب بها من الجسد ، ولكن الدم كان يتدفق بغزارة وكأن أضحية العيد قد استسلمت للسكين الطاهرة • انني أموت •

قالت زوجتي فيما تلف الشاش على الرسغ الملوثة بالدمـاء :

ـ كان عليك أن تحاذر فالمخرز حاد وخطر ·

ولكنني أحسست بوهن شديد فيما الشاش الأبيض لا يستطيع أن يقاوم الدماء المتدفقة ·

قال المذيع متوهجاً على الشاشة يبتسم :

« موجز الأنباء ونقدمه لكم في نهاية هذه السهرة الممتعة » ··

قلت لزوجتي :

ـ أحس بضعف شديد ·

مالت المرأة على الجرح تعاينه ثم مالبثت أن همت عليه بنفسها تحاول أن تمنع الدماء من الانسياب على أرض الغرفة النظيفة ·

« وقد صرح المسؤول الرسمي بأن الاستعدادات قد أخذت شكلها النهائي ، وان طائرة معادية لا يمكن لها أن تعبر أجواءنا » ··

كنت أحس بدمائي تهرب مني · هل يمكن ·· هل يمكن ··

« ان كفاحنا ليعتبر مثالا على ارادة الشعوب »·

لم أعد أحس بساقي • كان الفم يعمل كمضغة والدماء لم تتوقف بعد •

« والثوار يلقنون العدو درساً لا ينسى » ••

وتسللت البرودة الى الكتفين •• الى الرقبة ، وفمي ينمل •

« وقد جرى استقبال رسمي على الحدود » ••

الصورة باتت باهتة • الصــور بطيئة • الفم مضغة •

« وعليكم السلام ورحمة الله وتصبحون على خير» •

النشيد القومي • المارش يتلاشى ثــم صوت الفراغ ينطلق من الشاشة حتى تلاشى كل شيء •

المسيح أصاب مني مقتلا

كنت ، اذا حدث لي ما حدث ذلك اليوم ، أتمدد على الأريكة المربعة قطراً من أقطارها حيثما يحلو لي الاتجاه ، أو كنت أمارس رياضة عنيفة لدقيقة أو دقيقتين أقف بعدها تحت رذاذ الماء الفاتر ، أو كنت أتناول قرصاً منوماً وأستسلم لعدم قصير أصحو بعده لمزاولة العمل من جديد ، أو كنت ·· ولكن ما الذي حدث لي في هذه المرة ؟ لقد عجزت تماماً عـن اتخاذ أي قرار كتلك القرارات التي أتخذها

عادة اذا ما واجهتني مشكلة صعبة الحل . لقد وقفت
على حدود نفسي أراقبهـا تضطرم بالقلق . كنت
حذراً في السير على تلك الحدود لئلا أسقط في حفرة
الاضطراب الذي كان يتوالد ذاتيـاً فتتسع دوائر
الرجفة التي اعترتني ، ثم سكن كل شيء فجأة .
فجأة . فجأة . فجأ . .

عدت الى المشكلة من جديد أقلبها على جوانبها ،
رجل القصة التي شرعت في كتابتها يتسم بالطيبة
والخير ، فأين أجـد ذلك النموذج الذي يعطيني
التفصيلات اللازمة لرسم الشخصية . جعلت أستعرض
من أعرفه من الرجال . عمي كهل طيب ولكنه يضرب
خادمه أحياناً . سياسي بارز كان رفيق دراسة ناجح
ولكنه سقط في قاع أكذوبة سمعته مرة يصر عليها .
ثمة أستاذ قديم لي كان يعلمنا في المدرسة الابتدائية
لم أر أطيب منه ، ولكنه أصيب بالشلل ويقضي الآن
عزلة انفرادية وأعتقد أنه قد مات .

وكنت كلما استدعيت رجلا سقط ذلك النموذج
في امتحان تقديراتي الشخصية ، لذا فان القلق كان
سرعان ما يتعاظم ليخمد بعد قليل ، ومن ثم كان

يستيقظ وهكذا وجدت الحمى تلازم رأسي • قلت للمرأة التي نسيت وجودها على كرسي هزاز توقع لحناً صامتاً ورتيباً بأسياخ الصوف :

ـ هل يمكن أن يحدث مثل هذا الأمر ؟

ـ كثيراً ما يحدث مثل هذا الأمر •

ـ وكيف •• كيف يمكن •

ـ لأنه يجب أن يحدث •

ـ أن أصاب بالقلق الذي قد يرشحني للجنون•

وتوقفت قليلا أتأمل التجاعيد التي ابتلعت كل شيء في وجه المرأة التي انشغلت بالنظر الى خيط الصوف المتداخل في حركة دائبـة سببت لي النزق فصرخت :

ـ تتكلمين هكذا لأنك لا تعرفين ما هي المعاناة•

فمسحت أخاديد خدها الضامر ، آنذاك قلت :

ـ ولكنني يجب أن أعرف الحقيقة •

ـ لم تبحث كفاية •

ـ لقد بحثت •

ـ ولكنك بحثت في الذاكرة •

نظرت الى العجوز ملياً ، وتساءلت بغرابة :

ـ ولكن من أين لك معرفة ما يدور في رأسي ؟

ـ وهل يدور في رأسك سوى السؤال !

قلت هامساً :

ـ أمر عجيب حقاً ·

فقالت هامسة أيضاً :

ـ ألم ألدك !

كان لا بـد لي من أن أجد ذلك الرجل ، لقد أفلست مخيلتي ، نظرت الى التاريخ المعلق على الحائط فتبين لي أن زمناً طويلا انقضى علي حبيسا في هذه الغرفة أكتب واكتب · لا بـد أنني سأتوقف عن الكتابة ذات يوم ، وذلك اليوم ليس ببعيد ، فعاودني التمزق فلم أملك سـوى الاندفاع كفلينة أطلقها الضغط من فوهة زجاجة · ووجدت نفسي طافياً في الشارع وعلى سطح مقهى مزدحم بالدخان والضجيج والناس ، وأعادني الى الأرض صديق قديم قال لي :

ـ قصتك الأخيرة متشائمة ·

ـ آمل في أن تكون التي بعدها أكثر تفاؤلا .

ـ ماذا حدث لك يا أخي ، هل أصابك العجز .

ـ ما زلت شاباً .

ـ شباب الأربعين أجمل أنواع الشباب .

وشربنا الشاي على طريقة النبيذ وضحكنا وتحدثنا . كانت عيناي تبحثان في أرجاء المكان ، تفتشان .

قال رفيق الطفولة معقباً :

ـ لا بد أنك تبحث عن شخص لـه مواصفات المسيح شكلا ومضموناً .

ـ كل ما حدث هـو أنني بدأت أحس بجفاف المخيلة ، فجعلت أبحث عن نماذج حقيقية .

قال الصديق متحسراً :

ـ هل تعلم أن رفيقنا أحمد قد توفي بالسكتة بعيداً عن الوطن .

كنت أقول له فيما أبحث بين المقاعد :

ـ والمصيبة انك تبحث في الذاكرة فلا تجد شيئاً حواليك ، فلا تجد أحداً ، كل ما أريده هو نموذج للخير .

قلت للنادل :

ـ زبائنكم اليوم قلة .

فهتف الرجل متعجباً :

ـ وهل هناك منضدة بدون ناس لتقول هـذا يا سيدي .

قلت لنفسي :

ـ ولكني لم أجد نموذجي هنا .

كان رفيق الطفولة ما زال يتكلم حين انفرجت فتحة الباب الزجاجي ليطل رجل بهي الطلعة لم يمنع الحزن الذي يطفو على بحيرة وجهه العميقة من اشعاع جمال واضح . وجدت نفسي أهب واقفاً . وجدت عيني تحيطانه باهتمام . وجدت دمي يلهب رأسي وجلدة وجهي . وجدت ساقي تتحركان الى الامام . وجدت الرجل المسبل الشعر يتسمر في المدخل وقد يرق وجل خفيف في بياض عينيه ، وما كدت أتوجه

بكليتي نحوه حتى تراجع خطوة واحدة الى الوراء ثم استدار بخفة يتطاير شعره المسبل على كتفيه ، ومضى بعيداً فيما كنت أجـد نفسي منجذباً نحو اللحاق به ·

هو ذا ما أبحث عنه ·· وجهه الصافي كالبشارة · في الثلاثين هو أو أكثر قليلا ولكنه بدا كمن سبق له صنع الخير لألف عام · لمحته يمشي بهدوء ليختفي وراء عمارة فجريت · يجب ألا يفلت مني · لـم يهرب ؟ كان يمشي بوقار المسـيح على المـاء حين استطعت أن ألمحه في نهاية ممر ضيق فتهاديت بمشية اللا مكترث · هوذا من يجب أن ألقاه وأجلس اليه وأتحدث معه ، يحكي لي عن الخير والمحبة والحب · وقررت آنذاك ، فيما أقترب منه ، أن أجعل بطل قصتي في عمره ·· كان وجهه المنهدم الوجنتين يذكرني بمسيح فنان عصر النهضة ، يا الهي هوذا ما أطمح اليه وأتوق الى معرفته · أن أحيط بماضيه وأفكاره ، أن أتعرف على جغرافية أعماقه وتضاريس مجهولة · وفجأة وجدتني أمام زقاق مسدود فذعرت وتبينت انه قد أفلت مني فأحسست بالحقد عليه يتعاظم حتى

كاد أن ينفجر لولا أن لمحت منفذاً في العمارة يؤدي، الى فتحة مضيئة فجريت كالمجنون لأخرج الى الشارع العريض من جديد • أين ذهب المسيح !

ماذا يحدث لي لو أن أحداً تعقبني بمثل تلك الطريقة ؟ سأفقد اطمئنان روحي وسأهرب حتماً • وكنت على الرصيف أبحث تائهاً في بحر من الوجوه المتنافرة • تعب وقرف ، شر وحقد ••• لقد ضقت ذرعاً بكل شيء •• لا بل وجدت نفسي مستعداً لدفع أي ثمن من أجل الحصول عليه • كان هناك شرطي المرور فهل أسأله ، ماذا أقول له ! هل مر المسيح من هنا ؟ لقد ضاع في زحمة الوجوه ، آنذاك عاودتني عـادة قضم أظافري فاستندت الى عمـود الكهرباء ، أتفحص الناس • وفجأة كان ظهره يلوح لي من بعيد فيما يتقوس ليختفي في سيارة أجرة ، انطلقت كالمجنون في طول الشارع •

قلت للسائق الذي استجاب لطلب الملاحقة بهمة :
ـ يجب ألا تغيب عنك تلك السيارة •

فقال لي الرجل « هل تلاحق أحداً ؟ » فقلت له كاذباً أنا من رجال الأمن • فصدقني •

لاحت لي العمارة السكنية هائلة وجليلة فيما تطــل على حديقة كالبساط الريفي • ترجلت عند نقطة بدت لي كافيــة البعد عن المدخل الذي مرق منه حبيب القلب كالسهم • أخيراً أصبح الرجل بين يدي ، ولكن ما أن عبرت خاطري فكرة حتى هرعت كالملسوع أتطلع الى ممر محتمل يؤدي الى طرف آخر ، ولكن البواب العجوز الذي طالعني بهم كبير ، بدد الشكوك فقال مجيباً على سؤالي :

ــ هو يسكن في الطابق الرابع ، ولكن من أنت ولم تسأل ؟

واضطررت من جديد الى الكذب فصدقني البواب وتقدم باستعداد كبير للاجابة على جميع أسئلتي •

ــ ما هي مهنته ؟

ــ لا أعلم يا سيدي ، ولكنه فنان على الأغلب ، أو وارث يعيش لمتعته •

ــ أية أنواع من المتع ؟

ــ لم نلحظ عليه أي سلوك شاذ منذ سكناه هنا• يحبه الجميع فهو لــم يؤذ أحداً ، وان لــم يصادق أحداً من أهل العمارة •

ـ ولم لم يصادق أحداً ؟

ـ كمن يحب العزلة يا سيدي ، بل هو رجل صامت فعلا ولا صداقات له ، أقصد صداقات نسائية ، حتى ولا رجالية أيضاً ٠

ـ وأين يقضي وقته عادة ؟

ـ كثيراً ما يأوي الى البيت مبكراً ، وبخاصة في الأيام الأخيرة ، فانه ما عاد يخرج ليلا ، ويبدو وكأن وعكة قد أصابته ، البرد الليلي يا سيدي قاتل ٠٠

ولكنني قاطعته بقولي :

ـ هل يبدو عصبياً ؟

ـ بل هو هادىء كالمسيح يا سيدي ، وابتسامته تغرق بالثقة مدينة بأسرها ٠

لم أتردد حين قرعت الباب بثقة ٠ توقعت أن أنتظر طويلا ، لكنه أطل من فرجة الباب بجماله الحزين ، وكان التعب قد مر بقسوة على مساحات الوجه فبات كالظل أميل الى البرودة ٠ قال بيأس :

ـ لا بأس ٠٠ تستطيع أن تدخل ٠

ففاجأني بدعوته ، ووجدتني أقف على مشارف مملكة شبه مظلمة ، يشعمنها نور العينين القلقتين. الغرفة واسعة وهادئة ، كأنما لمسة فنان حقيقي يعيش في القرن الماضي هي التي نثرت الأثاثات واللوحات برهافة أثارت بي هواجس لا حدود لها ، كأنما أعرف هذا المكان من قبل ، تلك اللوحة وهذه المكتبة التي توجهت نحوها بهدوء لأنزع كتاباً قدرت أنه عن تاريخ المنطقة فاذ بي لا أخطىء ، فمستني رعشة انتقلت الى عيني . قال الشاب فيما يرتمي على كنبة وثيرة :

ـ لقد تعبت ، وماعدت أستطيع الهرب ، تستطيع أن تتخذ الاجراءات التي تجدها مناسبة .

فلم أفهم المعنى الذي يريد. تطلعت اليه بدهشة وأنا ماأزال أشعر بالعجب من ارتباطي بهذا المكان. قال الرجل :

ـ لم أستطع أن أهرب منك . ولا من نفسي ، يجب أن أقول كل شيء . ارحمني من مراقبتك .

ذلك القنديل النحاسي رأيته من قبل ، بل انني

أعرف تفاصيل ثناياه الدقيقة الصنعة • تمتم الشاب بتعب :

ـ يجب أن أحدثك عن كل شيء ، لقد مرت أيام عشرة وكأنها الأيام التي تسبق الاعدام •

آنذاك علمت أنني يجب أن أنصت وأن أعرف، لقد استبدت بي الرغبة في الاحاطة بكل شيء عن هذا الرجل الذي كان الالم يحاول أن يشوه جماله الذي لا حدود له • هتف الشاب بحرقة :

ـ اسمع مني كل شيء ثم أفعل أي شيء •

ـ ها اني مصغ اليك •

توقف الرجل تحت القنديل فانعكست ظـلال قاتمة لونت وجهه وكلماته التي تدفقت كالاستسلام بدون شرط :

ـ كانت جميلة • هل تعلم ماهو معنى أن تكون طفلة بثوب امرأة ، ان تحتضن البراءة بذراعيك ، أن تأتي البراءة اليك ، أن تحبها •

وانفجر الشاب ببكاء ساخن فأشرقت عيناه ، وغرقت في صدقه الذي يحكي لي من جديد :

ـ عالم يغرق في بحيرة الكذب .. ثم ترى نفسك أمام ينبوع من صفاء . رأيتها فنضبت رؤيتي للشر وكل شيء سيء . ناعمة كالهدوء ، بسيطة ولكنها كالحياة . أحببتها فأعطتني كل شيء . ووقعت على كنز من الأرض فجعلت أزرع مستقبلي ، كل يوم كنت أغرس في تربتها شيئاً مني وكنت أعلم انه سينمو ويتكاثر . هل تعلم ما هي الأرض ما معنى أن تستقبلك خصوبة لا شواطىء لكرمها . رأسي في حجرها أسمع صمت جمالها ، وكفي يغرف من رحم روعة تتجدد كل لحظة . كنا غريبين عن المدينة ، أنا باحساسي وهي بهجرتها اليها ، فالتقينا كطيرين في سماء أفسحت لنا رحابها . كانت تجهل المفردات ولكنها لم تتوقف لحظة عن العطاء في كل مجال ، كلمة الصدق مثلا ، الطهر ، الموت ، التفاعل ، التفاني ، الارتعاش ، الموت ، الاستغراق ، التواصل ، الموت ، الحب ، الموت . تلك الكلمات والمفردات كانت تعجز عن تفسير حرف منها ولكنها كانت قادرة على فعل أي منها ببساطة الأطفال . عفوية كالسائل الذي يأخذ شكل الاناء . سقطت في أحضانها ولكنني ارتفعت بمشاعري الى القمم ، كنت أحس بأنني

ابتدىء حياتي حين أراها وأتنفسها ، وكنت أتجدد أيضاً عندما أغادرها على أمل أني سألقاها • تقول انهـا عشيقة ! لا ، بل عشيقة العمر الذي يبتدأ بالولادة وينتهي بالممات • لـم أسمع منها كلمـة « وماذا بعد » لم تسالني عن المستقبل ، لأننا كنا نعيش المستقبل فعلا • فقيرة تقول انهـا فقيرة ! كانت تملك الابتسامة المشعة كالامل ، وكانت تفيض بكل مالديها : الرغبة ـ النوم ـ التساؤل ـ الشهوة الحيويـة ـ التعب • ترفض كالطفلة وتستسلم كالمرهق • عرفت نساء كثيرات ولكنني لم أعرف كائناً مثلها من قبل • لست مراهقاً لأعدد محاسنها ، لأنني لم أعاين مرة جزءاً من أجزائها على انفراد ، كانت كـلا لا يمكن أن ينقص أو يفصـل ، حتى انني لا أستطيع أن أحدد لون عينيها • في الغضب لهما لون وفي الاستسلام ولكل حالة تمر بها • لم تطلب شيئاً •• لم تكن لتطلب أي شيء ، لا طموح لها في امتلاك مال أو حلي ، وكنت أريـد أن أعطيها كل شيء وكنت قادراً على أن أفعل لها ومـن أجلها • ولكنها حصلت على كل ما تريد بدون أن تطلب • لم تعرف ما معنى « أريد » وكانت تجهل تفاصيل كلمة

« خذ » وكانت تعطي وكنت أعطيها · كانت السعادة هي التي تحتل عناوييننا اليومية · لقــد أصبت بالعدوى فكنت اذا وضعت يدي على وجهي أحس كأنني أضعها على وجهها ، لقد شعرت أكثر من مرة أنني هي · لا تعتبر هــذا نوعاً مــن التصوف أو الرومانسية المفرطة ، فذلك هو الذي حدث · ولكن ماذا حدث بعد كل ذلك ، ولماذا حدث ، هذا ما يسبب لي الجنون يا سيدي فارحمني ·

قلت باستسلام :

ـ ولكن ماذا حدث ·

قــال بقسوة سرعان ما استحالت الى وداعــة لا مثيل لها :

ـ لا يمكن أن تكون كالعالم بحيرة كذب ، ولكن ذلك الشاب الذي لصق بها كالعلقة على السرير الضيق الذي يملأ زاوية غرفتها · صرخت « لماذا » فهرب الشاب كالجندي الخائن وتطلعت هي الي بوجهها الصغير وبدت كالمستغربة وقالت ببراءة « لم أنته حزين » · صراخي كان هو الحزن وكنت أفكر في

أن أبقي حبي لهـا ، يجب ألا يموت ذلك الحب ٠ يجب أن تموت ٠ لست بقاتل ، ولكن صديقا كلف نفسه بمهمة ابقاء حبي لها ٠ قال الصديق فيما بعد : « لم يستغرق الموضوع وقتا وهذا ما يثير استغرابي يا عزيزي ، ما ان وضعت قفازاتي على عنقها حتى أعطتني موتا لا مثيل له ، حتى شككت بأنها استسلمت للنوم ، ولكن قلبها كان قد توقف ٠ »

صرخت بقسوة :

ـ ولكن لم ٠٠ لم

تساءل ببراءة :

ـ لم ! لأن الحب يجب أن يبقى ٠

ـ لم حكيت لي كل هذا ؟ لقد حطمت كل شيء ٠

فنظر الي بتشكك وقال بحرص شديد :

ـ ما هو الشيء الذي تحطم ؟

ـ صورتك ٠ لقد حطمت صورتك أيها الشاب ٠ وما دخلي أنا في كل ذلك ٠

ـ ما دخلك ! أليست من رجال الأمن ؟

فاستويت واقفاً فيما أقول :

ـ اي أمن واي رجال أيهـا الرجل الذي كان جميلا ٠

فتراجع مذعوراً وقـد التصق ظهره بالمكتبة وكان يتمتم :

ـ لقد خدعتني اذن ٠ أنت تعرف سري الآن٠

ـ وماذا يعني هذا ٠ كل ما أفكر فيه الآن هو تلك الصورة المهشمة ٠

ـ لم تكن منهم اذن ٠

ثم صرخ بوحشية أسقطت قناع الجمال عن وجهه :

ـ يجب أن يموت السر معك ٠

وما أن وصل صراخه أذني حتى كانت مدية أو أنها كانت آلة حادة ٠٠ آه ! فقد اخترقت الصدر لتصيب القلب تماماً ٠

كنت أتهاوى أمامه حين ففر فاه مذعوراً وانطلق خارج بيته الذي جعل يدور أمام بصيرتي الدخانية٠ كل شيء يلف ويدور ثم انتهى كل شيء حين سقطت

على الأرض • أهو الموت ، أم انه مكان آخر نذهب اليه بعد الحياة • ولكنني تحاملت على نفسي وجعلت أتطلع في أرجاء الغرفة لأتعرف على المكان ، باهت كان كل شيء كما رأيته لأول مرة ولا عمق لــه • تحسست صدري فاذ بالقبضة المغروسة باقيــة ، حركت ساقي فاستجابتا • أين الموت ؟ تذكرت أنني يجب أن أراه فقد كانت لدي أسئلة أطرحها عليه ولكنه كمن تبخر • فنزلت ببطء الى مدخل العمارة أسأل عنه ولكن البواب تطلع الي فلم ألمح منه سوى شــكل مسيح الوجه كصــورة قديمة شبه ملونــة فأعرضت عنه •

منذ ذلك اليوم لم أعد أميز عمق الناس أو أي شيء آخر • كانت الأشــياء مسطحة ، ولم يستطع أحد أن يفسر تلك الظاهرة التي تستبد بي حتى لقد تعودت عليها مع مرور الزمن •

التقرير

قال الرجل لطلابه الصغار الذين اختفت بطونهم وراء مقاعد الدراسة :

ـ درس الكيمياء لهذا اليـوم يتعلق بالنقاط التالية : التجزئة ـ التحلل ـ والضياع ·

ثم لوح بأنبوبة زجاجية طويلة تظهر بداخلها سائلا لا لون لـه ، فاشرأبت الاعناق اليه يحرك الانبوبـة في الهواء وكأنه يلوح لعيونهم المندهشة بمفاجأة مثيرة ·

قال طالب صغير الحجم يحمل على شفتيه كتلة مختصرة من الشعر الخشن :

ـ لم نفهم شيئاً ٠

فسرت همهمة متماوجة بين صفوف الطلاب ، أدت بالمعلم بعد لحظات أن يدرك الجهل المطبق الذي خيم على الرؤوس كاعلام الافراح ٠

« أما من الناحية اللغوية يا أبنائي فالأمر واضح، بقيت الناحية العلمية ٠٠ انظروا ، انظروا وستجدون تفسيراً لكل شيء » ٠

فتحركت العيون الى أعلى تكاد تلتصق بسقف الرأس ، فيما كانت طبقة زيتية تطفو لتتجمع على سطح السائل ، ثم برجة خفيفة من يد المعلم ، جعلت أبخرة بيضاء تتصاعد من فوهة الأنبوبة لتنعقد غمائم داكنة متفرقة في سماء الغرفة ٠

« افتحوا عيونكم جيداً يا أبنائي » ٠

ولكن أحداً من الطلاب لم يستطع أن يفتح عينيه ، فالدخان كان على ما يبدو يحرق العيون ٠

ـ الدنيا عتمة ونحن لا نستطيع أن نرى سوى ظلام أسود رطب ٠

صاح طالب من خلال الضباب الكثيف ٠

« افتحوا عيونكم جيداً يا أبنائي » ٠

ومع أن أكثر من واحد من الجالسين قد بذل جهداً مضنياً في تحريك جفنيه ، لكن النجاح لم يصب أياً منهم ٠

ـ لقد عميت تماماً ٠٠ فأنا لا أميز شيئاً ٠

صرخ طالب نما جسده بفحولة فيما يهب واقفاً كالمسعور ٠

« افتحوا عيونكم جيداً يا أبنائي » ٠

ولكن أصوات الاحتجاج هجمت كالغبار على نداء المعلم فلم تعد كلماته تسمع في زحام الآهات المخنوقة ٠ بعد قليل صاح المعلم بصوت كالرعد :

« افتحوا عيونكم ٠٠ لقد انتهى كل شيء »٠

وكان الضباب الذي خيم على المكان قد انقشع حالما دوى صوت المعلم ، فانفتحت العيـون المغلقة

ليتحسسها الطلاب بين مكذب ومشكك ، فاذا بات المنظر واضحاً ، تطلع الجميع الى الانبوبة فكانت فارغـة ٠

« أين ذهب السائل »

« اذن تبخر السائل »
« برجة أو رجتين يطير السائل »
« هذا سحر ٠٠٠ »
« لم نفهم شيئاً »
« كنت كالنائم »
« لقد نمنا فعلا »

وفيما كانت التعليقات التي أطلقها الطلاب تتشابك مع ابتسامة المعلم العارفة وقف شاب صغير الرأس وتساءل بهدوء بارد :

ـ وما علاقة التجزئة وما اليها بما رأيناه ؟

وقبل أن تتحرك شفتا المعلم بالاجابة ، أكمل الشاب الصغير الرأس :

ـ هذا عمل سياسي وليس بدرس كيمياء ٠
ـ سياسي ؟ ما هو السياسي ٠٠٠٠٠

كانت ساحة المدرسة تردد أصوات النفير التي تعالت في الجو ، لتقطع خيوط التحفز التي بناها عنكبوت القلق النزق • تفرق الطلاب من صفوفهم وبقيت عينا الشاب الصغير الرأس توازيان عيني المعلم ، وفيما جرفت حركة الطلاب معها توثب الشاب ، أحس المعلم بالراحة فأسرع بالخروج •

« لم يكن للدرس علاقة بالسياسة ، ولن تخيفني تهديدات الشاب المبطنة ، ولكن من يدري فقد يقدم تقريراً مزيفاً يحمله ما لم أقله • الدرس كان واضحاً : التجزئة ـ التحلل ـ الضياع ، وقد أثبتُّ تلك الصفات الكيميائية بالواقعة الملموسة » •

في البيت انفرد بنفسه في الغرفة المستطيلة الضيقة ، وبينما استلقت زوجته متعبة في سريرها وقد داخلها اليأس من دعوته اليها ، ظل هو يفكر ويقلب في الأمر ، فاذا الامر له مائة وجه • قال لنفسه بعد تعب :

ما دام الموضوع قد يصل الى هذا الحد ، فالأفضل لك أن تهيء نفسك لاستجواب طويل وعريض • قد يسألونك عن الماضي ، بل قد يمتد الأمر الى أدق

التفصيلات ، قد تكون غرفة الاستجواب باردة رطبة ولن تتوفر فيها الراحة • اكتب تقريرك هنا ومن خلف مكتبك النظيف ، وتستطيع أن تشرب القهوة متى تشاء •

ابتسم المعلم فيما يكدس أمامه الأوراق البيضاء، فقد تخيل وجوههم تتطلع اليه فيما يخرج التقرير أمام وجوههم وقد ضم بين سطوره اجابات لكل ما يمكن أن يخطر في بال أي منهم •

« اسمك »

« تجده يا سيدي في رأس الصفحة على اليمين ، ووفقاً للبطاقة الشخصية تماماً ، وفي السطر الثاني هناك محل الاقامة ، وأنا من مواليد عام ١٩٣٥ ، ولا أذكر أن أحداً من العظماء أو المفكرين أو العلماء قد ولد في ذلك العام ، ووفقاً لمعلوماتي المتواضعة يا سيدي فان الـ د • د • ت لم يكن قد اكتشف بعد، وان تكن مركبات الكبريت قد وصلت أوج استعمالها في تلك الحقبة من الزمن ، فأنا ما زلت أذكر أن أهلي دهنوا بـه جسدي من الكعبين وحتى الرقبة للقضاء على الجرب الذي انتشـر كالوباء في سني

الحرب الكونيــة الأخيرة ، والسبب يا سيدي هــو ارتفاع أسعار الصابون آنذاك » •

توقف المعلم عن الكتابة ، قـال لنفسه فيما يحاسبها :

ـ هذا استطراد لا داعي له •
ـ ولكن من يدري فقد تكون تلك التفصيلات ضرورية ، فهم عادة يطلبون تقريراً ضافية وشاملا مانعاً •
ـ قد يسخرون منك •
ـ ولكن من يخفي جانباً من الحقيقة كمن يخفي الحقيقة كلها •
ـ ما دام التقرير سيجيب على كل الأسئلة ، فانه من المفروض أن تتوقع الاجابة على أي سؤال قد يطرح عليك •

« ولأكثر من سبب واحد فقد درست الكيمياء • لأنني أحب مهنة التدريس أولا ، ولأن العرب كانوا يطمحون الى تحويل المعادن الرخيصة الى معادن ثمينة ، ومع أن المنفلوطي الذي أحببته في صباي لم يقترب

من سيرة الكيمياء فقد درستها ، وهكذا ترى يا سيدي أن ميولي لم تكن سياسية في يوم من الأيام ، كان هناك المنفلوطي كما ذكرت وجبران وأرسين لوبين وأسماء أخرى لا علاقة لها بالسياسة ، وتستطيع أن تستوثق من زملائي في المدرسة الثانوية ، ففي عام ١٩٤٨ لم أشترك في المظاهرة الكبرى التي خرجنا ، أقصد ، التي خرج بها الطلاب، الى الشوارع ينادون بالهجوم على اليهود المعتدين • قتل طالبان ولم أحزن عليهما لأنهما لم يكونا من رفاقي الخلص• أنا رجل أفكر علمياً ، أؤمن بالمعادلات ، حمض كلور الماء يعني تفاعل الهيدروجين مع الكلور ، وهذا هو كل شيء ، لذا فأنا لا أستغل دروسي في المدرسة ولا أتكلم في السياسة ، هذا ليس من شأني •

حياتي مستقيمة ، ولكنني لا أنكر ما فعلت من أشياء صغيرة لا تشير الى الاستقامة ، سأذكر لك حادثة لأدلل على صدقي وشجاعتي الأدبية ، غازلت زوجة جارنا العجوز ، كانت صبية وأنا فتى ، ولا أنكر أني نمت معها • أرأيت •• أرأيت •

أريد هنا أن أصحح لك بعض المعلومات التي

سردتها من قبل ، فأنا اشتركت في مظاهرة ١٩٤٨ ولكنني لم أكن في المقدمة فالصغار كانوا يهللون في المؤخرة فحسب ، وقد أجمع جميع الكتاب والمؤرخين على أن تلك التظاهرات لم تكن سياسية ، وهذا دليل جديد على شجاعتي الأدبية وانتفاء عملي السياسي المبطن •

يقولون أن السياسة مثل الكيمياء ، ولكنني أقسم لك أن الكيمياء ليست كالسياسة • تأكد من ذلك اذا شئت وارجع الى الكتب والى محاضرات الجامعة •• »

كانت الساعة تشير الى أن منتصف الليل قد اقترب ، فتأمل المعلم نفسه في زجاج النافذة • اختلطت صورته بانعكاسات أنوار الشارع الهزيلة • تمطى ولكنه أحس برغبة متجددة في معاودة الكتابة •

ـ انها فرصة لقول كل شيء ، فالصدق الكامل خير طريق للنجاة •

كان يتمتم لنفسه فيما يكتب سطرين ، ولكنه سرعان ما مرر قلمه على الكلمات بقسوة • لم يشأ أن يتحدث ، ولو بالاشارة ، عن علاقته الفاشلة بالصبية الحلوة أخت رئيس الطلاب الذي كان مسؤولا

مباشراً ذات يوم عن التظاهرات التي قامت تطالب بتأميم شركات الكهرباء والمياه والدخان • واضطر من أجل ذلك التخطي أن يعيد كتابة الصفحة بكاملها مجدداً حتى لا تظهر تلك الكلمات السوداء كدليل على التردد •

« وكانت الاضطرابات التي سبقت ورافقت الأحداث التي اشتعلت عام ١٩٥٦ ، كانت كالجائحة، ولكنني تفاديتها بانهماكي الكامـــل في دروسي الجامعية • أنا لم أكن متفوقاً في الدراسة ولكنني هيأت نفسي للخلاص من الجامعة بأسرع ما يمكن يا سيدي ، فالطقس هناك كان ملبداً بالغيوم بشكل لا نظير له، وأنا رجل علمي لا آبه للسياسة فهي مضرة، وكثيراً ما أودت بمستقبل الشباب : طرد من الجامعة أو اعتقال مع تعذيب يعطل أحد الأعضاء • ألا ترى يا سيدي أن تفكيري كان سليماً ولا يمكن لـه أن يساعد على تصديق تلك الوشاية ، فدرسي البارحة كان يتعلق بصلب الكيمياء • ألا تعتقد معي ، أن التجزئة تؤدي حتماً الى الانحلال فالضياع ، فما دخل السياسة في كل ذلك ؟

هنا لا بد لي من الاشارة بأمانة الى أنني اضطررت لأسباب نسائية بحتة الى حضور مؤتمرين أو أكثر كان بعض الطلاب قد دعى اليهما لنصرة بعض القضايا الهامة كاستعادة اللواء السليب وشجب العدوان على غزة وقنال السويس وما اليها من مواضيع اجتماعية بحتة لا علاقة لها بالسياسة ، وأقسم لك على أن حضوري لم يغير أو يبدل كما ان عدم حضوري لم يكن يثير قضية ، كما أنني لم أعلق بكلمة أو نصف كلمة ولم أصفق أو أهلل ، كان حضوري موضوعياً ويتسم بما يتناسب وهيبة الكيمياء من هدوء وعدم تحيز .

أنا أعلم أن الذي تقدم بالتقرير المتعسف ضدي، سبق وان نال علامات متدنية في فحوص منتصف السنة ؛ لهذا فان اجراءه هذا يعتبر ضغينة غير موضوعية وأنا هنا لا لأدافع عن نفسي بقدر ما أدافع عن الامانة العلمية في تقويم الاحداث والأقوال . صحيح أن كلمة التجزئة قد استعملت في القاموس اليومي للسياسة ، ولكن ماذنب الكيمياء اذا اضطرت أحياناً الى استخدام كلمات مشابهة لتلك التي تستعمل

في الحياة اليومية • خذ الضياع مثلا ، انها كلمة تستخدم في القاموس النفسي والاجتماعي أكثر مما تستخدم في القاموس السياسي ، فما ذنبي أنا عندما أستخدم تلك الكلمة للتعبير عن تلاشي المواد ؟

لقد غرقت آذاننا بعد حرب ١٩٦٧ في بحر الكلمات ، خسارة •• هزيمة •• نكسة •• ضياع، وفي الكيمياء أيضاً هناك خسارة وهناك هزيمة ، خذ مثلا بعض المـواد عندما تخسر ذرة من ذرات تكوينها الاساسية ، فانها تصاب بهزيمة تؤدي بها الى التحول أو الى الضياع • انها أمور عجيبة ياسيدي تلك العمليات الكيميائية ! ارتفاع في الحرارة يؤدي الى تفسخ المواد العضوية ، تغير في الظروف الموضوعية يتسبب في خمول مادة ما ، والخمول كثيراً ما يؤدي الى الشلل أو الموت •

هاك دليلا جديداً على حيادي وعدم استغلالي لحصة الدرس في استخدام السياسة :

أنا يا سيدي لـم أشكك في الوضع القائم بعد معركة حزيران ، الا أنني لا أنكر حزني آنذاك • صحيح أنني دخلت الى درسي ممتقع الوجه منهوك

القوى أحس كمن فجع بعزيز لديه ، ولكن حزني هذا لم يؤثر في مجريات الأمور ، فلم أشعر الطلاب بما يدور في داخلي خوف التأويل أو التفسير بأنني حولت الكيمياء الى تثبيط أو احباط ، ولكن طالباً ذكياً سألني آنذاك :

ـ ما هو الحل عندما يخسر الانسان معركة ؟

فأجبته متمالكاً أعصابي :

ـ الخسارة ظاهرة زمنية يا بني ، وكل ما هو زمني يمكن أن يتحول •

فقال بأسى لن أنساه مدى عمري :

ـ هل يمكن للخسارة أن تتحول الى خسارة والخسارة الى هزيمة والهزيمة هل يمكن أن تبقى مقيمة ؟

فأجبته بمرح مصطنع :

ـ انك تخالف قوانين الطبيعة ، فالأشياء لايمكن أن تبقى على ما هي عليه ما دام هناك تقلبه في الظروف المحيطة بها •

بعد يومين قال نفس الطالب :

ـ هل يمكن للانسان أن يكره وطنه ؟

ـ ولماذا ؟

فلم أستمع الى تعليقه لأنني بدأت آنـذاك في تسطير معادلاتي العضوية على السبورة السوداء ، وساد سكون • ولا أنكر يا سيدي أني تساءلت في سري ، دون أن يعلم أحد بما يدور في أعماقي ،هل يمكن للانسان ألا يحب وطنه ؟ هل يمكن للانسان أن يتنكر لحب الوطن ؟ انها مشكلة ، أليس كذلك يا سيدي !

لا أريد أن أكون واشياً فالوشاية أمر ينافي طبيعة الكيمياء ، ولكنني يا سيدي سمعت أكثر من شخص يتغنى بقوة الاعداء ، بل تعدى الأمر ذلك ، فهناك من قال لو أن الأعـداء حكموا هـذه الأرض اذن لاستتب الأمن وراجت التجارة وتحسنت الأحوال •

انني رغم كل شيء لا أعنى في حياتي سوى بالعلم والمعادلات ولكن اعترف بأنني شجعت ذات مرة لجنة لجمع التبرعات دخلت حصتي فلم أعترض ، وكان

سكوتي تشجيعاً لهم ، وتكلم رئيس اللجنة يحث الطلاب على دفع ما يملكون من أجل الفدائيين فهل كان الأمر سياسة ، لا أعتقد يا سيدي واذا كان الأمر كذلك فانني أعترف بخطأي وأعد بألا يتكرر تشجيعي لجمع التبرعات حتى لا يقال اني خرجت عن موضوعيتي •

انني رب أسرة كبيرة ، ثلاثة أطفال وزوجة وعمة عجوز ، لذا فأنا لا أحب المغامرة ، ولهذا السبب فقدت طموحي ، فأنا لا أحب أن أكون مديراً للمدرسة أو للتربية ، ومع أن عدداً لا يستهان به من زملائي قد أصاب من طموحه فنال مراكز ذات قيمة ، الا أنني لاأحب المغامرة ، أفلا يؤكد انضباطي هذا عدم تدخلي في السياسة •

ان علماً كالكيمياء لا يمكن له أن يفسح المجال أمام التكهنات أو التوريات ، انه كالرياضيات والفيزياء ، علوم موضوعية وحيادية ، ولكنني لاأنكر انه بالامكان استغلال بعض طرائقها للخوض في مواضيع مختلفة ، فأنا شخصياً أستخدم أحياناً بعض المعادلات مع أهلي وأصدقائي ، لمجرد التسلية

يا سيدي ، واذا أردت ضربت لك مثلا ، خذ هذه المعادلات :

بيت	+	حب	←	سعادة
وعود	+	كذب	←	خيبة أمل
وطن	+	حب	←	أرض بلاقيمة
أرض بلا قيمة	+	لا مبالاة	←	احتلال

وهكذا يمكن للكيمياء أن تكون مجالا للتسلية . صحيح أن هناك بعض الاصطلاحات كالوطن والاحتلال تمت بصلة وثيقة الى قاموس السياسة ولكن اللغة واسعة ، وعيب اللغة العربية يا سيدي انها حمالة أوجه ، فما ذنبي أنا ؟ واذا كنا سنحاسب على مرونة لغتنا فالأجدر بالقوانين أن تحدد أنواع الاستعمالات لهذه اللغة الواسعة الارجاء . وهنا يمكن القول أن حسن النية هو الذي يفصل بين المعاني المتعددة للكلمة الواحدة ، وأنا حسن النية كما يشهد لي الجميع ، لذا أطالب برد جميع أقوال الطالب الذي ادعى أني أستغل درس الكيمياء للتحدث في السياسة . وبناء على كل ما تقدم فانني أطالب ببراءتي من التهمة المنسوبة الي وللبيان حرر » .

ولما كان الفجر قد لاح بنوره فقد قرر المعلم ألا يستسلم للنوم العادي الذي يلجأ اليه الانسان في كل ليلة بصورة آلية • طوى التقرير من منتصفه ووضعه في ظرف ووضع الظرف في كتاب مبادىء الكيمياء ، وبعد القهوة المنشطة ارتدى ثيابه وتوجه الى ذاك المبنى القديم الذي يقع عند مفترق شارعين مزدحمين • وعندما أطل عليه موظف الاستعلامات بتثاؤب طويل قال المعلم بتأدب :

ـ أنا فلان الفلاني ، هل المدير موجود ؟

وما أن أستمع الموظف الى اسم المعلم حتى استوى في قفصه الزجاجي واقفاً وقال بخبث واضح :

ـ أعتقد أنهم ينتظرونك فوق ••

فشكره المعلم ، وتوجه بثقة كبيرة الى الطابق الأعلى ، وقد تردد في ذهنه تساؤل لم يجد له جواباً:

ـ كيف عرفوا أني سأحضر ؟

الفراغ بالألوان

(قصة للسينما بالأبيض والأسود)

- ١ -

كانت الغرفة جرداء ولكنهـا مظلمة • تمدد الظلام المتفحم وظل يملأ الزوايا حتى اشتعلت نقطة في نافذة طويلة فتطاولت حتى باتت حزمة نـور مبرغش • كان الرجل شاباً من الخلف وحين اتضحت صورة وجهه تبين أنه متعب حتى الهرم • الطاولة المربعة الصغيرة كانت باهتة أيضاً والكرسي بارد والكأس فارغة • في الغرفة لم يكن هناك سوى طاولة

وكرسي وكاس ورجل وحقيبة سفر • كانت هناك حزمة نور ولكنها ظلت مقيدة وتسقط كالحلم على رأس الرجل فلا يتحرك •

خفت صوت الضجة حتى العدم • فتخشبت ذرات الغبار في أنبوب النور فتحرك الرجل في مكانه ، ظل يتحرك حتى استوى واقفا • جالت عيناه في الزوايا ، كانتا تبحثان وقليلا قليلا خفت صوت البحث حتى استسلم ، حمل الرجل الحقيبة وانطلق • الغرفة والباب والاشياء هناك أرسلت تنهدات مخنوقة ، ثم ساد السكون •

- ٨ -

في كل مكان تحرك ، لم يجد أحداً • تصالبت الشوارع كالصليب ، لم يكن هناك حاكم ولا محكوم ولا شهود • كانت أقدامه تمضغ المسافات بصوت مسموع فتؤنس الوحشة التي انتصبت كالتماثيل في مداخل الأزقة • على رأس شارع جانبي وقف شيخ كاللام الشمسية ، فرح الرجل بـه فوقف يحييه • الشيخ كان يحتضن طبلا ممزق الجلدة ويتطلع الى الشمس الغائمة كمن لا ينتظر حدثا •

ـ هل اليوم عيد ؟

ـ ...

ـ أين الناس ؟

ـ ...

ـ محطة القطار هل هي بعيدة ؟

وهمس لنفسه أريد أن أعود ، ولكن الشيخ تحرك آنذاك مشيراً بسبابة أكلتها الاكزيما . الوجهة نحو الشرق ولكن الشمس كانت عاجزة تماماً عن الظهور . كمن يراقب الزمن تطلع الى ساعة المدينة فكانت بلا عقارب ، التفت الى العجوز يستوضحه الأمر ولكنه لم يجد أحداً .

عادت أقدامه ترسل خشخشة على بلاط الرصيف ، ولكن الصوت جعل يختلط بخطوات كانت قادمة من بعيد ، فهرع الرجل الى الشارع العالي يقفز على الدرجات العريضة ، ولكنه تراجع من جديد ، متطلعاً الى مصدر الصوت القادم . كان رجال أربعة يحملون تابوتاً غامق اللون ويسيرون به في خطوات ثابتة . حدق الى المسيرة ولكن التابوت كان فارغاً . جذبته

الايقاعات المنتظمة فحاول أن يلحق بالمشيعين لكنه أحس بعقم ما يفعل فعاود المشي في الاتجاه المعاكس .

على رصيف مقهى ، جلس رجـلان ينظران في الفراغ ، ولم يفكر لحظة في أن يسألهما عن محطة القطار ، مر من أمامهما فلم يتميز شيء في المقهى . ظل يمشي باتجاه سبابة الشيخ المهترئـة . أعطى أذنيه لصفير قطار قد يكون قادما ولكن الصمت كان يملأ تجاويف الأذنين . كانت المدينة تتحرك ببطء وكجندي يراوح في مكانـه ، فاستسلم للبطء الذي بدأ يدب في ساقيه .

المدينة مرسومة باتقان على صفحة الرؤيـة . النوافذ مغلقة . البركة جافة وهياكل الاسماك الميتة خلفت آثاراً واضحة على قاعها . نشيد حماسي انطلق فجأة من مذياع مقهى شعبي فأنشدت اليه أعصاب الرجل . تطلع الى المكان فكان رجل هناك قد أغفى على المقعد . نظر الى الحماسة المتبلدة في المكان ، أحس بشعور الذنب ، كان عليه أن يرحل وهو الآن واقف كالمسمار غرس قسراً في الأرض .

- ٣ -

وضع المحفظة على الأرض وانحنى يبحث من خلال الكوة الصغيرة عن قاطع التذاكر • القطار كان جاثماً بين رصيفين يرسل دخاناً كالضباب وصفيره المتقطع يمزق لحظة الترقب ويوقظ الحارس الهرم الذي جلس تحت الجرس النحاسي يسبّح • بدت حركة المسبحة بعد قليل كطرقات • قال الرجل لقاطع التذاكر الذي جعل يلاعب نفسه الشطرنج •

ـ تذكرة واحدة من فضلك •

ثم كرر نفس الجملة فيما ينصرف عنه قاطع التذاكر الى الملك المحاصر على رقعة الشطرنج • ثم ما لبث الرجل أن أشار باصبعه الى نقلة سرعان ما نفذها اللاعب ثم تطلع الى الرجل بامتنان وقال :

ـ الى أين ؟

ـ كيفما تشاء

ـ آخر الخط ؟

ـ آخر الخط

وفيما يأخذ التذكرة ، قال اللاعب :

ـ رحلة موفقة

كانت المحطة سوداء وساكنة بالرغم من ضجيج محركات القطار وصفارته الحادة · قال الرجل :

ـ شكراً ·

ولكنه سرعان ما أحس بحركة القطار فاندفع نحوه بذعر لم يصب به منذ سنوات طويلة ·

- ٤ -

المقصورات مزدحمة بالانفاس ، المقاعد مكتظة بالاجساد · لم يستطع الرجل أن يجد لنفسه مكاناً الا في الأخيرة · وضع المحفظة على الرف الطويل واحتل مكاناً بالقرب من النافذة وتصفح الوجوه · كانت الحياة قد هدرت في المكان وقد أيقظها تسارع العجلات واستعداد الناس في المقصورة للسفر الطويل ·

ارملة صامتة جلست أمامه ، كان وجهها جامداً وفي عينيها أمل فارغ · انتقل الى كهل يتثاءب فغاص في فمه الفارغ من الاسنان ، تذكر أيام الطفولة ··

مخابيء الحديقة المهملة ·· الحارس الطيب الذي كان يسمح لهم باللعب على هواهم ، أيام التظاهرات والحماسة ، وأغمض عينيه وكانت أذناه تنصتان الى ضجيج شابين كانا يلعبان الورق بشره · قال أحدهما :

ـ معي ثلاث بنات

وأعقب الآخر بلزوجة :

ـ ومعنا هنا اثنتان

فضحك الأول معلقاً :

ـ خمس بنات ، الورق مغشوش ·

ولكن المرأة لم تعلق بكلمة على الضحك الشرس الذي ملأ المقصورة ، كانت منهمكة في شغل الصوف فيما تهتز يداها بصورة آلية تثير القلق ·

خرج القطار من المدينة موازياً خط نهر جاف فابتسمت الارملة بتحفظ كبير وحين تطلع اليها الرجل اختفت ابتسامتها فتجاوز الاثنان جفاف النهر الى حقول صفراء مترامية حتى الافق ·

خيل الى الرجل انه يصافح بعينيه آلاف الجثث المرمية على سطح الحقول ·

قال لنفسه :

ـ الى أين ؟

أخرج كتاباً من جيبه ولكنه لم يستطع أن يقرأ حرفاً واحداً ·

ـ من أين ؟

ولكنه لم يملك جواباً لسؤاله · وبالرغم من أن الثوب الاسود الذي انزاح عن ركبة الأرملة كان أحدث تغييراً مؤقتاً في حواسه الا انه ظل يتساءل « من أين ·· الى أين » ·

كان صفير القطار متقطعا فيما تتناثر على الجانبين فزاعات تثير الخوف في النفس ، قالت الأرملة لأول مرة :

ـ ولم الفزاعات والأرض بور ؟

وكأنه اكتشف حقيقة هائلة قال الرجل للأرملة :

ـ لم ألحظ ذلك ، لابد أن المحصول قطف وبقيت الفزاعات ·

فابتسمت المرأة وبدت أنها أنثى لأول مرة ·
وعادت الى القول :

ـ بدت الفزاعات كالديكور ·

وتطلع الاثنان الى الحقول ولكن القطار كان على ما يبدو قد قطع المنظر بسرعته الجنونية وبدت للعين رؤية جديدة : آلاف من الشباب في زي موحد يتثاءبون ببطء ملحوظ وقـد انتصبت في الواجهة لافتة كبيرة كتب عليها « معسكر العمل والتثقيف »· فابتسمت المرأة من جديد ، والتقت الابتسامتان . فأحس الرجل بأمان لم يشعر به منذ مدة طويلة · قبلت منه سيجارة وجعلا يدخنان فيما صفير القطار يفزع الطيور ، قال الرجل ، خبيثاً قاسياً ، بلهجة ناعمة :

ـ كان منظراً كالموت

فلم تبد المرأة فزعاً ، قالت بهدوء :

ـ أي منظر ؟

ـ الارض البور ، والفزاعات ··

فقالت ودخانهما يتعانق في الفراغ الذي بدأ يضيق فيما بينهما :

ـ والمعسكر ؟

ـ كان له معنى

ـ أي معنى ؟

ـ كانوا يتثاءبون

ـ هل تحب أنت أن تتثاءب ؟

ـ عندما أجد حاجة لذلك

ـ ما هي محطتك ؟

ـ الاخيرة

ـ هي محطتي أيضا

ـ رفيقان

فابتسمت المرأة واعتدلت في جلستها فاختنقت المسافات وبات الفراغ ضيقاً لدرجة أحس فيها الرجل بأنفاسها حقيقية وساخنة ٠

- ٥ -

عندما تحركت العجلات من جديد ، كانت الأيدي متشابكة وهادئة ، والعيون تتطلع تتفحص المرأة الصغيرة التي ضمت الى صدرها وليدها النائم . وفيما تأخذ مكانها عاد بقية الركاب الى الاستمرار في السفر .

عاد التهامس بين المرأة والرجل . قالت هي :

ـ هل تحب الأطفال ؟

ـ لا أعرفهم . وأنت ؟

ـ كنا أطفالا

ـ لقد نسيت ذلك ، كان ذلك منذ زمن بعيد .

صاح واحد من اللاعبين :

ـ معي ثلاث بنات

وصاح الآخر :

ـ ومعي واحدة ، معنا الآن سبع بنات .

وخرجت الضحكات كالمفرقعات فبكى الوليد وصحا الكهل وتوقفت المرأة عن شغل الصوف ثم

تابعت عملها من جديد . وظل المتحابان يتابعان مشهد الظلام الخفيف يتوالد عبر النافذة حتى بات الليل هو كل شيء خارج القطار .

- ٦ -

دخل المقصورة رجلان رسميان ، سد أحدهما الباب بجسمه المليء وتقدم الثاني بأدب ملحوظ ، وأعلن عن نفسه « الجمارك » فلم يتحرك أحد من مكانه . وجعل الرجل يتفحص الحقائب والسلال التي وضعت على الرفين المتقابلين . قال المليء :

ـ من الأفضل أن يصرح كل واحد عن الممنوعات التي يحملها قبل أن تبدأ عملية التفتيش .

سأل الرسمي المرأة الأرملة : أين هي حقيبتك يا سيدتي ؟

فقالت ببرود :

ـ بدون حقيبة

فابتسم لها وكأنه يعرب عن تصديقه بعينيه . قالت الأم فيما جعل وليدها يصرخ :

ـ ليس معي سوى طعامه ، وها هي السلة •

قال الرسمي فجأة مشيراً الى حقيبة كبيرة :

ـ من صاحب هذه ؟

فاستوى الرجل واقفاً وقد لاحقته عينا المرأة تدعوانه للانتهاء سريعاً والعودة اليها •

قبل أن يحرك الرجل ساكناً ، سأله الرسمي :

ـ ماذا في الحقيبة ؟

ـ افتحها وانظر

ـ هل هناك من ممنوعات ؟

ـ لا أعتقد ذلك

ـ لا تعتقد ذلك !

وحين تدخل الرسمي المليء في التحقيق الذي بدا انه سيأخذ جانباً جدياً وحاداً ، قال :

ـ اذن فأنت لا تعتقد •

ـ هناك أمور أعتقد بها وأخرى أشك بها وثالثة لا أعتقد •••

فقاطعه الرسمي المهذب بقوله :

ـ كيف للانسان أن لايعتقد بشيء يخصه أصلا؟

ـ انه أمر نسبي يا سيدي

ـ ولكن أليست الحقيبة تخصك ؟
ـ قبل أن تصبح بين يديك كانت تخصني
ـ والآن ؟
ـ تخصك أنت
ـ أنت تسخر
ـ لا أسخر

وصاح المليء والزبد يتجمع عند الزاويتين الضيقتين :

ـ وقتنا لا يتسع للحماقات
ـ أرى أن وقتكم لا يتسع للحماقات أو الاعتقاد أو عدم الاعتقاد ، وكذلك وقتي لا يتسع لشيء .

قال الرسمي المهذب :
ـ وهل يتسع للحب اذن ؟
ـ أي حب !

وأشار بغمزة من عينيه الى المرأة التي جعلت تراقب الحوار باهتمام لم يمنع بسمة الاغراء المنتظرة من أن ترتسم على شفتيها المكتنزتين . نظر الرجل الى الاكتناز وابتسم في وجه المرأة ، قال المليء :

ـ والآن لنعد الى موضوعنا
ـ أي موضوع ؟
ـ موضوع الحقيبة
ـ أية حقيبة؟
ـ حقيبتك
ـ هي لك اذا أردت يا سيدي
ـ لقد عدت الى السخرية
ـ بل عدت الى الحقيبة

وهنا خرج الرسمي المهذب عـن هدوئه وقال بتزمت :

ـ للمرة الأخيرة أسألك . هـل هناك شيء في الحقيبة
ـ لا أعتقد ذلك يا سيدي
ـ ما دمت لا تعتقد فلماذا لا تفتحها لنا
ـ لأنك لم تطلب مني ذلك

وحـين جعل الرجل يفتح الحقيبة ، كان بكاء الطفل قـد اشتد ، ولكن ذلك لـم يمنع الرجلين الرسميين من التحديق في بطن الحقيبة الذي بـدا فارغاً وتبادلات النظرات المشبوهة ، ثم امتدت يد

المليء بقطعة حـادة تمزق الجوانب فيما تحولت المقصورة الى شيء أشبه بخلية النحل ، بين الضحكات الساخرة والتهليل والبكاء ، ولكن شيئاً لا يمكن وصفه كان قد حدث لتوه ثم دوت أصـوات هائلة وانقلبت المقصورة على نفسها فارتطمت الرؤوس بالحقائب ، وتدحرجت أجساد ، واستلقى الرسميان عـلى الأرض فتجمعت فوقهما أجساد أخرى • كان المشهد وكأنه خض بقسوة ثم قلب على عقبه •

- ٧ -

برزت عناوين الصحف بعد ذلك مشيرة الى أن قطاراً قد خرج عن القضبان ليسقط في هوة سحيقة ولم ينج أحد من الركاب •

- ٨ -

في اليوم التالي صححت الصحف معلوماتها ، وأفادت بأن وليداً سمع صراخه بين الجثث والقطع المتناثرة عبر مساحات هائلة من الأرض المحروقة • ولم يعلق أحد بعد ذلك على تلك الحادثة بأية كلمة ، وكأن الناس كانـوا يعلمون مسبقاً بمـا سيجري للقطار وما سيحدث للناجي الوحيد من تلك الواقعة •

الظل في يوم خريفي

تزداد ضراوة السأم في الصيف ، آنذاك لا أعلم كيف السبيل الى التخلص من تلك المشاعر اللزجة التي تلازم حتى عظامي وأوتار عضلاتي ٠٠ وحدث أن قابلت طبيباً في المقهى الذي عودتني الأحداث والأيام على ارتياده ، وشرحت له تلك الأعراض ، فسألني ان كانت تلك الحالة مستجدة أم مزمنة ، فقلت له بل متدرجة ، بدأت منذ سنين قليلة ، وهي تزداد حدة لتصل أوجها في الصيف ٠ وبعد اللقاء

مع الطبيب أجريت فحوصاً دقيقة ومفصلة استهدفت دمي و بولي ووظائف كبدي ، كما أن تخطيطاً للقلب تمت اعادته أكثر من مرة لتفسير تلك الانقباضات النفسية المستفحلة ، لكن الفحوص لم تسفر عن شيء يشير الى أي خلل أو نقص عضوي ، فعدت الى حالة السأم ٠

قادتني تلك الحالة الى التفكير في وسائل مختلفة لمكافحة السأم ٠ قال رفيق المقهى : عليك بالقراءة ٠ انني اقرأ كثيراً وفي الأيام الأخيرة ما عدت أفهم شيئاً مما أقرأ ٠

صارحني شيخ يدير صيدلية بقوله :

ــ عليك بالحب

ــ أي حب ٠ انني عاجز عن الحب ٠

ــ عليك بالجنس اذن ٠

ماذا يقول هذا الخرف ، أية حدود جغرافية مصطنعة يضعها بين مقاطع الجملة المتماسكة الواحدة ٠ قلت لنفسي ذات مرة لقد تغيرت تماما يا ابن العربي ، لم تكن تلك مفاهيمك ولا تصرفاتك ٠ ماذا حدث لك ٠ لا بد أنها الأيام ، أو انه مركبك الذاهب نحو الأربعين ٠

لجأت الى كتب تحكي عن السأم فلم أجد لحالتي مثيلا على صفحاتها • انني أمل الأشياء بسرعة ، ولا أطيق مقابلة الشخص مرتين في يوم واحد • أسأم من تصديق الحوادث ومن تكذيبها أيضاً • كرهت الاخبار السياسية والاجتماعية ، حتى الأطفال الذين طالما أحببتهم لم أعد أحس بقدرة على متابعة براءتهم وعفوية تصرفاتهم • أدخل الى مكتبي الوظيفي فتهبط علي موجة من الكآبة ، أعود الى بيتي فأتظاهر بالمرح لكن الأسرة سرعان ما تقوم بلعبة تسليتي الا أنني أتشبث بالنوم • في النوم وجدت سعادة فباتت أحلامي متنوعة ومشوقة ، ولا تكاد ليلة تمضي دون أن أرى فيها حلما جديداً، فكأنما الاحلام باتت هي الفترة الوحيدة التي لا يترعرع فيها عود السأم المورق ليسد منافذ رؤيتي وتنفسي •

في يوم من أيام الصيف القريبة قلت لرفيق المقهى:

ــ ماذا عن الأحلام التي تراها

ــ لا أرى الأحلام الا لماما

ــ وبأية طريقة تراها ؟

فاستفحل التساؤل في وجهه ثم قال ساخراً :

ـ على الطريقة الحديثة

فاستبشرت وهتفت :

ـ هل حقاً تراها على الطريقة الحديثة ، أنته تراها ملونة اذن !

ـ من هي التي أراها ملونة ؟

ـ الأحلام

فأفلتت من بين أسنانه التي بدت صفراء كالحقد ضحكة بلا لون وقال :

ـ وهل ترى أنت أحلامك بالألوان ؟

ـ بلى

ـ ألوان وسكوب أيضا

ـ وكيف عرفت ؟

فانفجر غاضباً وصاح بأعلى صوته موقظاً عدداً من زبائن المقهى وقال :

ـ هل تضحك علي يا سالم العربي ؟

فأقسمت على أنني أقول الصدق ، فنصح لي

الاقلال من شرب الكحول فقلت له ألا تشرب أنت أيضا ، ألا نشرب جميعا ·

وأفزعتني تلك الاشاعات التي أطلقها جليس المقهى عني وعن أحلامي الملونة ، وتوجست شرا في عيون الجلساء الساخرة ، وكان لابد من الانقطاع عن المقهى الذي ألفته والفني لمدة طويلة ، ففعلت، واكتفيت بالاقتصار على السؤال من حين لآخر عن بعض الرفاق بالهاتف · كنت أحادثهم سائلا عن أحوالهم ، أو أنني أخترع حكاية ما تبرر لي الحديث اليهم · وذات يوم وكان جو من البرودة الخفيفة قد خيم على المدينة مبشرا ببداية الخريف ، كنت في مكتبي وحيدا أجالس الهاتف الأسود وأرنو اليه أفكر في البحث عن رفيق يجادثني ، ولكن عجزي عن ايجاد سبب أو علة لم يمنعاني من الاتصال بعامل الهاتف في المقهى والطلب اليه أن يستدعي لي رفيقا أعطيته اسمه ، الا انه قال لي أن الرفيق قد خرج لتوه ، فسألته ان كان قد عرفني فابدى أسفه فقلت له دون أي تصميم مسبق اذن فأعطني السيد سالم العربي ، ثم انفجرت ابتسامة على وجهي لم أعرفها

منذ سنين فيما أتخيل جهد الرجل الضائع فيما يسأل عني دون جدوى ، ولكن الابتسامة المنفجرة لم يقدر لها أن تتطاير في روحي لأن أذني سمعت في تلك اللحظات صوت الرجل يقول لشخص ما تفضل فهم يطلبونك على الهاتف • وجاءني الصوت على الطرف الآخر يقول نعم فقلت باعتذار رقيق :

ـ انما أريد أن أتحدث الى السيد سالم العربي

ـ أنا هو سالم العربي

ـ هل أنت واثق ؟

ـ هل تحمل سراً خطيراً لكي تتأكد من شخصي؟

فقلت بغضب خفيف لا أحب هذا المزاح ، فقال بغضب شديد وأنا لا أحب المزاح أيها السيد المجهول • ثم أقفل في وجهي تاركاً غضبي يتحول ببطء شديد الى خوف سرعان ما اشتد ليدفعني الى الانطلاق نحو المقهى الذي كان عادياً كما عهدته حين دخلته • توجهت الى الموظف الذي جعل يسجل على أوراق أمامه ، وما أن سمع صوتي حتى رفع رأسه ونظر الي مبتسماً فيما يقول ها قد عدت يا سيدي ، فقلت

له هل حدث أن طلبني أحد على الهاتف ، فقال منذ قليل وقد أجبته يا سيد بنفسك ٠

ـ هل أنت متأكد

وكان أن ارتسمت الدهشة على وجهه ، فتراجعت دون أي تعليق لأخرج الى الهواء الذي امتلأ برطوبة المساء الخريفية ٠

لا بد أنها سخرية جديدة مني ٠ تلك هي المؤامرة الكبرى ، اشترك فيها الرفاق مع موظف الهاتف للتأكيد على مرضي بل هلوستي ٠ وحدث أن قررت في الليل التصدي لكل النتائج المرتقبة ، ولكن شروق الشمس العادة ألغى مشاعر التحدي ووضعني في بوتقة السأم من جديد ٠

لقد امتنعت تماماً عن ذكر تلك الحادثة أو المقلب لأي من الناس الذين يحيطون بي ، ولكن بعد الظهر أتى بحادثة غريبة لا يمكن للعقل أن يصدقها ، ولكنها حدثت بالرغم من ذلك ، فقد رأيته بأم عيني ، رأيت ذلك الشخص أو الشبيه بعيني الاثنتين فيما كنت أنظر الى نفسي في مرآة الحلاق ، وكانت الشمس

تميـل الى الاصفرار ، والشارع الذي انعكس في المرآة الهائلةالاتساع يزدحم بالناس والنور والضجة والحيوانات والسيارات • حدقت ملياً فوجدت ذلك الشخص • ارتطمت كفي بالمرآة فيما أكاد أمسك به وقد وقف ينظر الي بهدوء مريب فارتعشت كل خلايا جسدي ، وما كدت أهم بالحركة حتى ابتسم بغرابة ومضى • ركضت في الشارع بالصابون الذي يغطي الوجهوالفوطةالتي التفت على العنق ، وما أن أوغلت في الشـــارع الاحقه حتى أحسست بعيون الناس تلاحقني بالاستغراب فتوقفت لأعود خائباً • قلت للحلاق الأحدب :

ـ لقد رأيته بأم عيني

قال الأحدب يتابع عمله في رأسي ووجهي :

ـ بوادر حرب ، أراهن • غلاء •• غلاء

قلت لنفسي بصوت مسموع :

ـ لقد رأيته ، لا يمكن الا أن يكون أنا• القامة والشعر والعيون ، والملابس •• يا الهي الملابس أيضـــاً •

صحت فزعاً « الملابس » فتابع الأحدب تحليله الدقيق للوضع الراهن ٠

أنا هو ، هو أنا ٠ أنا هنا ، وهو أين يكون ٠ أنا أنا ولا يمكن أن أكون الا أنا ، وهـذا الكائن الجديد ! لا يمكن لهذا الكائن أن يكون خيالا أو توأما ٠ علي أن أراجع نفسي ، هذا ما قررته في الليل ٠ لقد جلست أمام نفسي أشرح لها وتحكي لي ، نعود الى الماضي نحصي آلاف الملاحظـات والمشاهدات ، ندقق في أحداث ونسجل ٠ في اللحظات الاخيرة من تلك المواجهة الحاسمة قررت أن صحتي بخير وعقلي سليم ، وأن الأوهام لا سلطان لها علي ، وأن السأم أمر لا علاقة له بالهلوسة ، وأن القرين حادث طارىء خرج الى ساحة حياتي اسبب أجهله الآن ، ولكنه حقيقة وما علي الا أن أبـذل جهداً في البحث عنه والامساك به ، أتحسسه وأتأكد من لحمه وحرارته ونواياه ٠

في الحلم كانت الصور متتابعة وملونة أيضاً : سكون ٠ قيظ ٠ حزيران ٠ بعوض ٠ مذياع خشبي متشقق ٠ امرأة حامل ٠ فارس مدجج بسلاح كثيف

يركب بغلا • صبية منفرجة الساقين • فلول من الجنود في ساحة مكشوفة • ثلاثة نسور تنهش لحم جندي مفزوع العينين يطلب النجدة بصوت غير ظاهر • ذباب أحمر • ذباب أزرق • ضبع يبول على الوادي • يونيو تموز جمادى الاولى • أون أصفر متوهج يمر كطيف • سأم واحد سأم اثنان •• انفجار •

استيقظت مع الشمس واستعرضت الحلم المعقد الذي أنساني كل شيء عن مقابلتي لنفسي في الليلة التي فاتت • وكان وقت العمل قد حان فاتجهت الى المكتب • جلست بمواجهة الحائط وظهري الى الاوراق المتراكمة كالغبار • كنت أحاول أن أستعرض الحلم من جديد ، ولكن بقاياه هي التي مرت أمامي كصور متقطعة قلت لنفسي ماذا لو أنهم اخترعوا آلة تصوير تستطيع أن تختزن الأحلام ، كنا نستطيع اذن تسجيل كل شيء ثم نقتل الحلم بتكراره مرة بعد مرة •• العلم عاجز أنا عاجز ، ولكن الصرخة التي ندت عن صدري توقفت عند فوهة فمي فيما تناهى الى سمعي صوت مألوف ينبعث من زاوية

الغرفة المستطيلة يقول ماذا تفعل بمكتبي بالكرسي الدوار • وانتقلت بكليتي الى الزاوية وقد تحفزت بصيلات شعر جسدي بأسرها كقطيع من القطط الوحشية ، ولم يكن هناك أحد • جمدت في مكاني ، أرهفت السمع أتوقع صوتاً جديداً ، ولكن الأمر لم يتكرر بعد ذلك بالرغم من توقعي لعودة الصوت ، فلبثت في حالة ما بين السأم والجمود حتى انتهى دوام العمل •

قالت زوجتي مستغربة :

ـ ألم تخبرني أنك لن تتناول الغذاء معنا •

فانتابني الاعياء وسألتها فيما أحتل مساحة الكرسي :

ـ لم أخبرك • لم أتصل بك اليوم •

اذن فقد ابتدأت الحملة • اليوم زوجتي يتصل بها وغداً من يدري ما الذي سيفعله هذا الذي لم أجد بعد تسمية له • أعقبت زوجتي بعد فترة :

ـ منذ متى كانت لهجتك جافة على الهاتف •

فلم أملك سوى الاعتذار والتعليل بالاشغال التي

تتراكم فـوق أكتافنا خلال فترة العمل • انتصر علي ، وها انني أعترف بوجوده وأتستر على أفعاله وأدافع عن خطاياه •

طلبت صحفي من البائع فنظر الي باستغراب ، وقال ألم تحضر منذ قليل لأخذها ، فلم أجادله • مشيت في الطريق بريبة وتوجس • ها انني حوصرت تماماً • انتابتني فكرة مخيفة فتوقفت • لو انـه استغل وجودي ، سرق أو قتل • فلم أحتمل توارد تلك الأفكار فانطلقت الى المقهى كالمجنون وجلست كالقتيل على مقعدي الذي افتقدني • ناديت على النادل كالمسحور • كان المقهى فارغاً الا من رجال لم يسبق لي التعرف على أشكالهم • طلبت قدحاً من الليمون ، فقال الشاب أنت تكثر اليوم من الليمون هل أنت مريض ياأستاذ ، فنظرت اليه بهدوء متفحص وسألته منذ متى كنت هنا ، فأجاب بثقة منذ قليل هل نسيت • لا لم أنس ، من ينسى • لقد كنت هنا قبل قليل ولأتقبل هذه الحقيقة القاتلة الى أن أجده • اذا كان يريد لقاءاً فها أنا بانتظاره هنا وفي كل مكان • وعندما توافد الرفاق وجدت حجة مقنعة

للمغادرة ، فقد بدت وجوههم تحمـل بذور المزاح الساخر ، وأنا فقدت القدرة على المجابهة ·

همت بعد ذلك على وجهي في الشوارع والأماكن · كنت أحمل رغبة في المواجهة · لقد دفعني الفضول الى تخيل مغامرة مثيرة تكون حياتي هي الثمن للمعرفة التامة لسر هذا القرين · هـل يمكن لهذا الذي يحدث أن يكون مجرد وهم أم أنه نوع من السحر لم نتوصل بعد الى رموزه · صرخت أريد الحقيقة فلم يجبني أحـد · ركضت على الجدران الشاهقة فوقعت · تدحرجت على اسفلت المدينة فاتسخت · قرأت في عناوين الصحف فلم أفهم شيئاً · فليت جلدي فاذ بـه مصاب بالاكزيما · مشيت في جنازة رجل لا أعرفه · صليت وراء إمام يتلو آياته بشكل غير مفهوم فالتصق جبيني بالأرض ولم أنهض الا حين دوى صوت المذياع يحكي عـن الحرب · الخريف الحرب العبور سقوط الجبل أغان تفيض حباً وعنفاً · التصق سمعي بالمذياع ، ليل نهار كنت أستمع وأتفاعل وأقفز في مكاني ، أتابع أخبار المعارك الطارئـة ، أصنعها في مخيلتي لأجدها حقيقية في أخبـار اليوم

التالي . لم أعرف الهدوء ولكني لم أعرف التعب . حرب ، لا هدوء ، لا سأم كانت هي السعادة .

لقد ابتدأ الخريف حقيقياً بغيماته حينما استلقيت بكليتي تحت شمسه الدافئة أقرأ أسماء القتلى من رجال الحرب . موت جميل لا يسبب الحزن . أيتام في كل مكان ولكنهم لا يعرفون الأسى . رجال أموات ، أموات رجال . موت موت ولكنني قفزت من مكاني أقرأ نعياً لسالم العربي الذي قضى في ساحة الشرف . تجمدت الحركة في عيني . تيبست الحيوية في ذراعي . سالم العربي مات ! متى ؟ فأنا مازلت هنا أستظل بالشمس الدافئة أحس بالسعادة . تساءلت بحدة متى قضيت أنا في ساحة الشرف وأنا الذي لم يغادر المدينة . تذكرته فجأة ، اذن فهو الذي .. لا .. من يدري ..

حتى هذه اللحظات ما زلت أفكر بجد لا يعرفه السأم : من منا الذي قتل ومن منا الذي لم يقتل .



قصص الكتاب




مطابع الف باء ـ الأديب ـ دمشق
السعر : ٣٥٠ ق.س